من أعـلام الفكر الإسـلامى

الحكيم الترمذى

٣٢٠هـ

بقلم

الدكتور/ أحمد عبد الرحيم السايح

مركز الكتاب للنشر

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى
١٩٩٩



مصر الجديدة : ٢١ شارع الخليفة المأمون - القاهرة
تليفون : ٢٩٠٨٢٠٣ - ٢٩٠٦٢٥٠ - فاكس : ٢٩٠٦٢٥٠

مدينة نصر : ٧١ شارع ابن النفيس - المنطقة السادسة - ت : ٢٧٢٣٣٩٨

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين. والصلاة والسلام على سيدنا محمد المبعوث رحمة وهداية للعالمين.

اما بعـــــــد...

فإن الحكيم الترمذى يعتبر من أعظم الشخصيات الإسلامية التى يعتز بها التاريخ الإسلامى. فقد ظهر فى فترة ازدهار علمى. كانت بداية لتفتح ينابيع المعرفة التى ظلت مؤثرة فى حضارة العالم قروناً طويلة، ولا زالت البحوث والدراسات تكشف عن هذه الينابيع المؤثرة.

لقد ظهر الحكيم الترمذى فى فترة حرجة كانت أحوج ماتكون إلى الحكيم حيث خط المسار، ووضع للنفس المنهاج، حتى تستجيب لنوازعها الخيرة. وقد ولد الحكيم : أبو عبدالله محمد بن على بن الحسن بن بشر الترمذى من عائلة تنتمى إلى العرب فى العشرة الأولى من القرن الثالث الهجرى، القرن التاسع الميلادى.

وكان والد الحكيم من رواة الحديث الذين رحلوا فى سبيله، واشتغلوا براويته. فقد ترجم له الخطيب البغدادى، وذكر أنه نزل بغداد وحدث بها. وقد روى الحكيم كثيرا من الأحاديث فى كتبه المتعددة عن والده.

وكانت أم الحكيم كذلك من أهل الحديث فقد روى عنها الحكيم فى كتابه « الرد على المعطلة». وكذلك كان جده لأمه من أهل الحديث. لقد فتح الحكيم الترمذى عينيه على حلقات العلم وروايات الحديث. والدرس منذ بدأ يعقل. لأن أباه كان أحد علماء والفقه. بجانب رواية الحديث. وقد أخذ أبوه يغرس فيه حب العلم، وتحصيل المعارف، ويحمله على ذلك حملا فى وقت مبكر، حتى امتلأ وقته منذ الصبا الباكر بالإقبال على مذاكرة العلوم وتحصيلها، شأن النابهين.

وحسبك بيت علم ينشأ فيه الحكيم فتلتقط أسماعه أول ما تلتقط آيات القرآن الكريم، وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم. يهتف بها أبوة كما تهتف بها أمه. ولهذا كان

لكتاب الله عز وجل، وسنة النبى صلى الله عليه وسلم، السلطان على اتجاهات الحكيم، وسلوكه وتفكيره ومؤلفاته.

ولاشك أن إتقان الحكيم الترمذى للقرآن الحكيم حفظاً وفهماً، وتبحره فى علم الحديث.

« كان ذا أثر بعيد فى اتجاهاته الفكرية، وأرائه التى بسطها فى كتبه المختلفة، مما يشعر بثقافته الواسعة، ومعرفته العميقة بالقرآن الكريم وأسراره، والسنة النبوية ومناهجها، وانعكس ذلك انعكاساً واضحاً على كل ما كتبه، بحيث لا تجد صفحة واحدة من كتبه إلا ويستشهد على مايورده فيها من أراء بالقرآن الكريم والأحاديث النبوية التى كان محصوله منها وفيراً ».

ولما كان الحكيم الترمذى من علماء القرن الثالث والرابع الهجريين كان علينا أن نتعرف على هؤلاء العلماء الأفذاذ، الذين أمدوا الأمة بكل ما هو نافع ومفيد، وتركوا لنا تراثاً شامخاً.

إن قراءة هؤلاء العلماء فى أفكارهم وسلوكهم دليل صحة ودليل عافية.

وأن أمة تخطو إلى مجد مشرق. لابد وأن تقرأ رجالها وتدرك فى سماحة ما لهذا الرجال..

ولا شك أن الأمة الإسلامية تملك صيداً ضخماً يمكن استثماره فى كل ما من شأنه أن يكون علامة مضيئة.

أ.د/ أحمد عبدالرحيم السايح

(الفصل الأول)

حياة الحكيم الترمذي وعصره

* مولد الحكيم وعصره
* نشأة الحكيم وثقافته
* شيوخ الحكيم وأساتذته
* مجاهدات الحكيم وسلوكه
* لماذا كان الترمذي حكيما



المبحث الأول

مولد الحكيم وعصره

يعتبر الحكيم الترمذى من أعظم الشخصيات الإسلامية التى يعتز بها التاريخ الإسلامى، فقد ظهر فى فترة ازدهار علمى، كانت بداية لتفتح ينابيع المعرفة التى ظلت مؤثرة فى حضارة العالم قروناً طويلة..

ظهر الحكيم فى فترة حرجة كانت أحوج ما تكون إلى الحكيم حيث خط المسار، ووضع للنفس المنهاج، حتى تستجيب لنوازعها الخيرة.. وقد ولد الحكيم : أبو عبدالله محمد بن على بن الحسن بن بشر الترمذى[١] من عائلة تنتمى إلى العرب[٢]، فى العشرة الأولى من القرن الثالث الهجرى «القرن التاسع الميلادى»[٣].

وكان أبوه من رواة الحديث الذين رحلوا فى سبيله، واشتغلوا بروايته، فقد ترجم له الخطيب البغدادى، وذكر أنه نزل بغداد، وحدث بها[٤].

وقد روى الحكيم كثيرا عن والده فى كتبه المتعددة، وكانت أمه فى أهل الحديث، فقد روى عنها، وجاء ذلك فى كتابه «الرد على المعطلة»[٥].

وكذلك كان جده لأمه من أهل الحديث[٦].

وثبت أنه أخذ الحديث عن بعض مواطنيه[٧].

---

(١) السبكى «طبقات الشافعية الكبرى» جـ٢، ص١٤٥ الطبعة الأولى البابى الحلبى، والذهبى «تذكرة الحفاظ» جـ٢، ص٦٤٥ الطبعة الثالثة، الهند. والبغدادى «هدية العارفين» جـ ٢، ص ١٥، ١٦ ،ط استنبول، تركيا.وابن حجر «لسان الميزان» جـ٥، ص ٣٠٨، ط حيدر آباد، الهند.

(٢) الحسينى «المعرفة عند الحكيم الترمذى» ص ١٣، ط دار الكتاب العربى بمصر.

(٣) الدكتور أربرى وعلى حسن « الرياضة وأدب النفس» ص٣، ط الحلبى ١٣٦٦ هـ مصر.

(٤) الخطيب البغدادى «تاريخ بغداد» جـ١١، ص٣٧٣، ط الخانجى بمصر.

(٥) الترمذى «الرد على المعطلة» مخطوط بلدية الاسكندرية فنون متنوعة رقم ١٤٥.

(٦) الدكتور الجيوشى «منازل العباد من العبادة» ص ٧، ط دار النهضة العربية بمصر.

(٧) الحسينى «المعرفة عند الحكيم الترمذى» ص ١٤، ط دار الكتاب العربى بمصر.

من كل ذلك يتبين للباحث والدارس : أن الحكيم فتح عينيه أول مافتح على حلقات العلم، والحديث ، والدرس، وأنه أحيط بهذا الجو النقى، وتلقت مسامعه أول ماتلقت كلمات الله، وأحاديث رسول الله ﷺ يهتف بهما أبوه، كما تهتف بهما أمه، ولهذا كان لكتاب الله سبحانه وتعالى، وسنة نبيه صلوات الله وسلامه عليه السلطان كل السلطان على اتجاهاته، وتفكيره، وسلوكه، ومنهجه، وخطاه.[١].

ومما يلاحظ أن كتب التراجم والطبقات لم تذكر تاريخا لمولد الحكيم الترمذى، ولم تحاول أن تستنتج تاريخًا تقريبيًا له، على عادة القدماء، فأنهم لم يكونوا يقدمون على ذلك مالم يكن تحت أيديهم نص يستندون إليه، وإن كانت الكتابات جميعها تشير إلى إنه : رأى النور فى الربع الأول من القرن الثالث الهجرى.. وعذر كتاب التراجم والطبقات والمؤرخين فى ذلك : أن الحكيم لم يكن قد عرف من شأنه ما يجعل المؤرخين يرصدون تاريخ ميلاده، ولم يقدم هو لهم ما يعينهم على معرفة مولده[٢].

هذا والذهبى يذكر أنه رحل إلى نيسابور سنة خمس وثمانين ومائتين، وأنه عاش حتى بلغ الثمانين [٣].. ومعنى ذلك أنه ولد على التقريب سنة خمس ومائتين[٤].

وابن حجر العسقلانى يذكر أن الانبارى سمع من الحكيم الترمذى سنة ثمانى عشرة وثلاثمائة، وأنه عاش نحوا من تسعين سنة [٥].. ومعنى ذلك أنه ولد على وجه التقريب سنة ثلاثين ومائتين [٦].

يقول الدكتور بركة : ورواية الذهبى ـ كما نرى ـ لاتتعارض مع رواية ابن حجر، بل تمهد لها وتساندها. لكن الاستنتاج بأنه ولد على وجه التقريب سنة ثلاثين ومائتين، معارض بما ورد فى كتب التراجم من أنه ولد فى أوائل القرن الثالث، ومن

---

(١) الدكتور الجيوشى «منازل العباد من العبادة» ص ٧.

(٢) الدكتور الجيوشى «مقدمة منازل العباد من العبادة» ص ٧، دار النهضة العربية.

(٣) الذهبى «تذكرة الحفاظ» جـ ٢، ص ٦٤٥، ط الهند.

(٤) الدكتور بركة «الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية» جـ١، ص ٣٣، ط مجمع البحوث بالأزهر.

(٥) ابن حجر «لسان الميزان» جـ ٥، ص ٣١٠، ط الهند.

(٦) الدكتور بركة « الحكيم الترمذى» جـ ٢، ص ٣٣.

أنه صحب أبا تراب النخشبي، وأحمد بن خضرويه، الصوفيين المشهورين، ومن أنه روى عن قتيبة بن سعيد الثقفي، وعن صالح بن عبدالله الترمذي، وعن الحسن بن شقيق البلخي.. فمن الملاحظ أن أبا تراب النخشبي توفى عام خمسة وأربعين ومائتين، وأن أحمد بن خضرويه وقتيبة بن سعيد قد توفيا عام أربعين ومائتين، وأن صالح بن عبدالله قد توفى عام نيف وثلاثين ومائتين، ويقال أن الحسن بن عمر بن شقيق قد توفى عام ثلاثين ومائتين[1]..

والدكتور بركة بعد أن يذكر تواريخ وفاة من صحبهم الترمذي، ومن روى عنهم يصل إلى مقولة تقول : فإذا كان الحكيم الترمذي قد ولد عام ثلاثين ومائتين، كان معنى ذلك أنه بلغ من العمر عشر سنين وقت وفاة أحمد بن خضرويه، وقتيبة بن سعيد، وخمسة عشر عامًا عند وفاة أبي تراب النخشبي.. وإذا أمكن أن يتحمل الحديث في هذه السن، بصورة من صور الاحتمالات.. فكيف تثبت صحبة الطريق والسلوك في مثل هذه السن؟ ويتابع الدكتور بركة كلامه فيقول:

«ثم إذا علمنا أن الحكيم الترمذي لم يتجه إلى العلم والتنسك إلا بعد أن تجاوز السابعة والعشرين من عمره، وأن هذه الصحبة لابد أن تكون قد وقعت له بعد هذه السن.. أمكن لنا أن نستنتج - باستخراج هذه الأعوام السبعة والعشرين من الأربعين ومائتين التي توفى فيها أحمد بن خضرويه - أن الحكيم الترمذي كان موجودا عام ثلاثة عشر ومائتين - وإذا أضفنا أن هذه الصحبة استمرت عاما أو عامين أو أكثر، لأمكن أن نستنتج - بأقل وجوه التقريب - أنه قد ولد قبل عام عشرة ومائتين [2].

وهذا يتفق مع ماذكرته كتب التراجم من أنه ولد في أوائل القرن الثالث الهجري، ومع ما استنتجه الذهبي - بعد أن أورد أنه رحل إلى نيسابور عام خمسة وثمانين ومائتين - من أنه عاش حتى بلغ الثمانين [3].

إذ معنى ذلك أنه ولد عام خمسة ومائتين للهجرة، ومن الممكن أذن أن نتفق مع الذهبي فيما يخص تاريخ ميلاده [4].

---

(١) الدكتور بركة «الحكيم الترمذي» جـ ٢، ص٣٤..
(٢) الدكتور عبدالفتاح بركة «الحكيم الترمذي ونظريته في الولاية» جـ١، ص٣٥.
(٣) الذهبي «تذكرة الحفاظ» جـ ٢، ص ٦٤٥..
(٤) الدكتور بركة «الحكيم الترمذي» جـ١، ص ٣٥..

ولئن كان لكتب التراجم العذر فى السكوت عن ذكر مولد الحكيم.. فإن الباحث لا يجد العذر المقبول فى التضارب الواسع الذى يجده عند المؤرخين بالنسبة لوفاته، بعد أن عاش حياة طويلة عريضة خاض خلالها معارك، وتعرض لمحن، ومصادرات حرمت عليه حتى الالتقاء بالناس..مما يمكن أن يقال معه أنه شغل الدنيا وشغل الناس، ومع ذلك فإننا نجد الخلاف على تاريخ وفاته يمتد إلى أن يبلغ خمسة وسبعين عاما.. فبينما يهدى الاستنتاج القائم على الملاحظة الدقيقة، أن وفاة الحكيم كانت بعد ٣١٨ هـ [١].

وذلك لما يرويه ابن حجر أن الأنبارى سمع منه سنة ٣١٨ هـ. وهذا يعنى أن وفاته كانت بعد هذا اللقاء [٢].. لذا أصبح من الممكن أن نتفق مع ابن حجر العسقلانى، فيما يتعلق بتاريخ وفاته، لاسيما إذا سجلنا ماذكره فريد الدين العطار فى كتابه «تذكرة الأولياء» من أنه عاش مائة وخمسة عشر عامًا [٣].

فليس صحيحا ماذكره صاحب «كشف الظنون» فى مواضع من كتابه، وكذلك صاحب «سفينة الأولياء» من أنه توفى سنة ٢٥٥ هـ. ولعل مرد هذا خطأ من الناسخ.. فليس معقولاً أن يبلغ الخلاف فى وفاة الحكيم هذا الفارق الضخم [٤]. ومما يدفع الباحث إلى رفض التاريخ المذكور أن الحكيم نفسه يتحدث فى رسالته «بد و شأن» عن رؤيا رأتها زوجته فيقول : «ثم رأت لسنتين أو ثلاث، وذلك يوم السبت ضحى لعشر بقين من ذى القعدة سنة تسع وستين ومائتين» [٥].

وكذلك لا يقبل الباحث القول : بأن وفاته كانت سنة ٢٨٥ هـ لأن هذا التاريخ معارض بما ذكره السبكى والذهبى من أن الترمذى قد رحل إلى نيسابور سنة ٢٨٥هـ حيث أقام بها مدة يدرس الحديث، وهناك تلقى عنه عدد من محدثيها [٦].

---

(١) الدكتور الجيوشى «منازل القاصدين إلى الله» ص ٧، ط دار النهضة العربية.
(٢) ابن حجر «لسان الميزان» جـ٥ ص ٣١٠..
(٣) عثمان اسماعيل يحيى مقدمة كتاب «ختم الأولياء» ص ٩، ط المطبعة الكاثوليكية بيروت.
(٤) الدكتور الجيوشى مقدمة «منازل العباد» ص ٨.
(٥) الحكيم الترمذى «بدوشأن أبى عبدالله» ص ٣٠، فقرة ٢١، تحقيق عثمان إسماعيل ط بيروت.
(٦) السبكى «طبقات الشافعية» جـ ٢ ،ص ٢٤.. والذهبى «تذكرة الحفاظ» جـ ٢، ص ٦٤٥.

والباحثون لا يوافقون الدكتور على حسن عبدالقادر والدكتور آربرى فيما ذهبا إليه من قولهما أنه : يمكن أن نستنتج أن أبا عبد الله مات عند نهاية القرن الثالث الهجرى، وأقرب مايكون أن ذلك كان فى حدود سنة ٢٩٦هـ ٩٠٣م[١]. وذلك لرواية ابن حجر من أن الأنبارى سمع من الحكيم الترمذى سنة ٣١٨هـ. ولعل هذا مما دعا بعض المؤرخين المحدثين من الغربيين إلى اعتبار وفاة الترمذى سنة ٣٢٠ هـ.

لذلك يرجح أهل البحث أن يكون الحكيم الترمذى قد ولد عام خمسة ومائتين، وأنه عمر مائة وخمسة عشر عاما، وأنه توفى عام عشرين وثلاثمائة للهجرة [٢].. ومعنى هذا أن الحكيم عاش عمرا مديدا، كان خلاله عاملاً دءوبًا باحثًا، لايفتر عن المجاهدة أو الدرس أو الرياضة، تشهد بذلك آثاره وكتبه ورسائله [٣].

ولد الحكيم الترمذى بمدينة ترمذ، ومدينة ترمذ تقع داخل الأقاليم الإسلامية التى تخضع للاتحاد السوفيتى. ومات الحكيم ودفن بترمذ، وقبره معروف الآن فى خرائب «ترمذ» القديمة.. يقول بارتولد: «ونجد بين الأبنية فى خرائب المدينة القديمة، ضريح الولى أبى عبد الله محمد بن على الترمذى. وهذا الضريح من المرمر الأبيض. وقد ذكر «بوسلافسكى» : أن هذا الأثر لايفوقه من حيث الصنعة والمادة أى أثر آخر من الآثار القديمة التى عرفت حتى الآن فى هذه النواحى»[٤] .. والراجح أن يكون قد بنى فى القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى). وهو اليوم أجمل الآثار بين أطلال ترمذ، ومن أجملها فى آسيا الوسطى [٥]..

---

(١) الدكتور آربرى والدكتور على حسن عبدالقادر ومقدمة كتاب« الرياضة وأدب النفس» ص ١١، ط البابى الحلبى ١٣٦٦ هـ.

(٢) الدكتور بركة «الحكيم الترمذى» جـ ١، ص٣٥.

(٣) الدكتور الجيوشى «منازل العباد من العبادة» ص٨.

(٤) الدكتور آربرى وحسن عبدالقادر «الرياضة وأدب النفس» ص ١١، ط البابى الحلبى.

(٥) المستشرق بارتولد دائرة المعارف الإسلامية جـ٩، ص ٢٨٦، ط كتاب الشعب.

وترمــذ[1] التى ولد فيها الحكيم ـ كما يؤخذ من لقبه ـ مدينة على الضفة الشمالية لنهر جيحون بالقرب من مصب نهر سرحان [2]..

وكانت البوذية هى السائدة فى «ترمذ» إبان الفتح الإسلامى، فقد كان بها أثنا عشر معبدا ونحو ألف راهب، وكان على ترمذ وقتذاك أمير عظيم الشأن، لقبه «ترمذشاه». وكان بها حصن منيع يشرف على النهر، وفى عام ٧٠هـ «٦٨٩ ـ ٦٩٠م» فتح ترمذ موسى بن عبد الله بن حازم، واستقل بحكمها خمسة عشر عامـا[3]..

وقد شهدت «ترمذ» بعد الفتح الإسلامى، نشاطاً فكرياً ملموساً، مما جعل ترمذ إحدى مراكز الثقافة الإسلامية الشهيرة، فى القرن الثالث الهجرى، فى منطقة ما وراء النهر.. وفى ترمذ نشأ عدد كبير من العلماء، والباحثين، والفقهاء، والمحدثين، وتذكر دائرة المعارف الإسلامية: «أنه اشتهر من أهل ترمذ فى التأليف رجلان : أولهما أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذى صاحب «كتاب الجامع والعلل وكتاب الشمائل المحمدية» المتـــوفى عام ٢٧٩ هـ. والثانى : المحدث الحافظ أبـو عبد الله محمد بن على الترمــذى» [4]..

ومنطقة (خراسان) التى تقع فيها مدينة «ترمذ» من المناطق التى كانت فى العهد الإسلامى مسرحًا لكثرة المذاهب والمعتقدات، كان يباين بعضها أشد المباينة، وكان يعيش بعضها إلى جوار بعض، وكان ينحو بعضها ناحية خاصة من التعصب والغلو، فكان الجو الذى يسود هذا الإقليم، جوا من التباين والتعصب والاضطراب، يعيش على أرض تتقسمها الأهواء والمذاهب والنحل [5].

---

(١) بكسر التاء والميم ـ كما هو المعروف، أو بفتح التاء مع كسر الميم أو ضمها كما هو متداول على لسانهم «صفى الدين البغدادى مراصد الاطلاع جـ ١، ص ٢٥٩، «وترميذ وترمز» دائرة المعارف جـ ٩، ص ٢٨٦».

(٢) بارتولد «دائرة المعارف الإسلامية» جـ ٩، ص ٢٨٦.

(٣) المصدر السابق ص ٢٨٦، والبلاذرى «فتوح البلدان» ص ٤٠٨.

(٤) المستشرق بارتولد «دائرة المعارف الإسلامية» جـ ٩، ص ٢٨٩.

(٥) عبد المحسن الحسينى «المعرفة عند الحكيم الترمذى» ص ٤٢.

ويذكر لنا المقدسى : أن مذاهب أهل الإقليم مستقيمة ـ أى أنهم على مذهب أهل السنة والحديث ـ إلا فى سجستان، ونواحى هراة كرخ، واستراجان، فإن بها طائفة من الخوارج، وأما نيسابور فإن بها الشيعة والكرامية، لهم فيها ظهور وغلبة، وللمعتزلة بها ظهور كذلك وليست لهم بها غلبة، وأما أهل «ترمذ» فهم جهمية، وأما أهل الرقة فهم شيعة، وأهل قندر قدرية، وأما إقليم ما وراء النهر وبخارى فإن أولاد على به على غاية الرفعة، وأما الكرامية فقد كان لها ظهور فى أغلب مدن الأقاليم وقد كان لها جلبة فى هراة، ومرج الشاة [1]..

أما فى التصوف فقد ظهر فى الأقاليم لونان أساسيان : أحدهما : كان يميل إلى التفكير العقلى الفلسفى الجرئ، والآخر كان يميل إلى تفكير أهل السنة والجماعة، هذا التفكير التقليدى المحافظ.

أما الأول فظهر فى الجنوب، وفى أماكن المعتزلة والمذاهب الفلسفية القديمة. وأما الآخر فقد سار موازيا له، ولكنه إلى الشمال منه، ولكن هذين التيارين اختلطا أخيراً عندما اتحدا فى الممرات الضيقة إلى أواسط آسيا [2]..

وعلماء تقويم البلدان يذكرون : أنه بجانب هذه المذاهب الإسلامية ـ التى عاشت فى البلاد ـ عاشت إلى جوارها فى هذه البلاد أيضا بعض المذاهب والديانات الأخرى التى ظهرت قبل الإسلام، فقد كان ببخارى وماوراء النهر، طائفة كبيرة من اليهود، وأخرى من النصارى قليلة، كما كان بها أصناف كثيرة من المجوس [3].

ولكى تستكمل الخصائص الأساسية المميزة لهذا الإقليم يستحسن أن نعرض لهذه الحركات المذهبية الخاصة التى انفرد بها دون بقية أجزاء الدولة الإسلامية.. وأولى هذه الحركات بالذكر والتى يقترن اسمها دائما باسم «خراسان» و«ما وراء النهر» فهى حركة «أهل الحديث» وتبدو هذه الحركة واضحة جلية فى القرن الثالث الهجرى، حيث ظهرت لتعمل نحو جمع الحديث واستخلاص الصحيح منه..

---

(١) المقدسى «أحسن التقاسيم» ص ٣٢٣.

(٢) عبد المحسن الحسينى «المعرفة عند الحكيم الترمذى» ص ٤٤.

(٣) المقدسى «أحسن التقاسيم» ص ٣٢٣.

وكانت هذه الحركة حركة شاملة، واسعة النطاق، أو كانت اتجاهاً عاماً لثقافة هذا الاقليم فى هذا العصر، ولا أدل على ذلك من هذه الحقيقة الواضحة، وهى أن الكتب التى كانت خلاصة هذه الحركة العلمية، والتى استطاعت أن تفرض نفسها على أهل الحديث ترجع جميعها إلى هذا العصر وهذا الإقليم [١]..

ولعلنا ندرك مدى شمولها وانتشارها حينما نعرف أن أصحاب الصحاح الستة البخارى ٢٥٦هـ، ومسلم ٢٦١ هـ، والترمذى ٢٧٩ هـ، وأبو داود ٢٧٥ هـ، والنسائى ٣٠٣ هـ، وابن ماجة ٢٧٣ هـ،وسواهم من أئمة الحديث، كانوا جميعهم من أبناء هذه المنطقة ورجالاتها [٢].

وأما الحركة الثانية فيسميها بعض الدارسين بحركة أصول الصوفية الأولى. وهذه الحركة نشأت فى «بلخ» وما حولها، فى أواخر القرن الثانى، وأوائل القرن الثالث. وهذه الحركة لم تكن قد تميزت بعد بلون خاص سوى هذه المحاولات الأولية لتأسيس مذهب صوفى، والتى تمثلها طائفة من صوفية «بلخ» الذين نستطيع أن نذكر منهم : الفضيل بن عياض ١٨٧ هـ، وإبراهيم بن أدهم، وحاتم الأصم ٢٣٧هـ. الذين يعتبرون أعلام الصوفية المسلمين [٣].

وأما الحركة الثالثة التى امتاز بها إقليم «خراسان» فهى تتصل بعلم الكلام، ونستطيع أن نتبين فى هذه الحركة، لونين متباينين.. مذاهب الكلام المتصلة بالسياسة ومذاهب الكلام التى تتصل بأهل الرأى [٤] ..

فقد ترعرعت فى هذا الأقليم فرق المتكلمين من شيعة، ومعتزلة، وخوارج، بما فيهم المرجئة، والجهمية [٥]. ولم تقصر المذاهب الفقهية عن القيام بدورها فى هذا

---

(١) الحسينى «المعرفة عند الحكيم الترمذى» ص٤٥.

(٢) الجيوشى مقدمة «المسائل المكنونة» للترمذى، ص ٥، ط دار التراث العربى مصر.

(٣) المصدر السابق ص ٤٦.

(٤) المصدر السابق ص ٤٧، بتصرف واختصار.

(٥) الجيوشى مقدمة «المسائل المكنونة» للترمذى ص ٦، ط دار التراث العربى.

الإقليم، فقد كان التعصب بين أتباع أبى حنيفة والشـافعى عنيفا إلى حد الاقتتال وإزهاق الأرواح[1].

هذه هى المذاهب الإسلامية التى تكوّن خصائص إقليم خراسان، والتى ظهرت فى العصر الإسلامى. ونستطيع أن نذكر إلى جوارها طائفة أخرى من المذاهب غير الإسلامية، كانت تعيش فى هذه المنطقة قبل الإسلام، وامتد بعضها إلى العصر الإسلامى، تلك هى مذاهب المانوية، والمجوسية، والبوذية. أما المجوسية فقد كانت الديانة الشائعة فيما يعرف بأرض إيران .. وأما المانوية فقد كانت تقع فى الجزء الشمالى، مما يلى جبال إيران من ناحية الغرب، حيث كانت تنتشر فى بعض البلاد.. وأما البوذية فقد أتت من ناحية الهند.. سائرة نحو الشمال، فاتخذت لنفسها مركزا فى ترمذ وبلخ [2].

و«ترمذ» المدينة التى نشأ بها الترمذى نفسها قد كانت صورة واضحة من هذا الخليط من المذاهب الإسلامية وغير الإسلامية، فقد كانت مركز هذا الإقليم، والبؤرة التى تجتمع فيها كل هذه المذاهب والنحل والأجناس [3].

ويقول الباحثون : كانت خراسان أحد المراكز الثقافية الهامة فى تلك المنطقة.. تتفاعل مع هذه التيارات، وتتأثر بها، وتشارك فى صنع جانب منها أحيانا، إلى جانب نظيراتها من مراكز الثقافة النشطة فى ذلك الإقليم، مثل بخارى، وسمرقند، وبلخ، ونيسابور، وكان الصراع الفكرى ـ بين رجال المذاهب، والفرق الإسلامية، من فقهاء ومحدثين، ومتصوفة، وعلماء كلام، حول بعض المفاهيم الإسلامية، وكيفية تطبيقها ـ على أشده، إلى جانب الصراع بين الإسلام كقوة دينية، وثقافية

---

(١) الجيوشى مقدمة «المسائل المكنونة» للترمذى ص ٦، ط دار التراث العربى. مصر.

(٢) الحسينى «المعرفة عند الحكيم الترمذى» ص ٤٨.

(٣) المصدر السابق ص٤٤.

واجتماعية، وبين بقايا الديانات القديمة ومواريث سكان البلاد الأصليين التى توارثوها عبر القرون الطويلة [1].

وكان أمراً طبيعيًا أن تتصارع المذاهب، والأفكار فى تلك الحقبة من عمر الدولة الإسلامية، لأنها كانت فترة النضج إلى جانب الاطلاع على الأفكار التى نقلت إلى ساحة الفكر العربى من خلال الترجمات التى شجعها المأمون وأنفق عليها الكثير، حتى لونت فكر المتكلمين والفلاسفة وانعكس أثرها على بعض المذاهب التى أحب أصحابها أن يطعموا بها الفكر العام، فى تلك الحقبة من الزمن... وكان من أثر ذلك أن ظهرت حركات فكرية أخرى تحاول أن تصدر هذا التيار اليونانى، الذى يريد دعاته أن يجعلوا منه روافد للفكر الإسلامى [2]..

فى ذلك الجو المشحون بالصراع الفكرى والاجتماعى، والمائج بالحركة الدائبة، والدراسات النشيطة، نشأ الحكيم الترمذى، وترعرع، وتلقى ثقافته، ومعارفه.

---

(١) الدكتور الجيوشى مقدمة «المسائل المكنونة» للترمذى ص٥.

(٢) الدكتور الجيوشى مقدمة « معرفة الأسرار» للترمذى ص ٧، ط دار النهضة العربية.

المبحث الثانى

نشأة الحكيم وثقافته

ان الباحث فى حياة الحكيم الترمذى العامرة بالعلم، يدرك أن طفولة الحكيم لم تكن طفولة عادية، مليئة بلهو الأطفال، وعبثهم ولعبهم، إذ لايتصور أن يتعود ذلك ثم يفطم عنه دفعة واحدة، دون أن يحدث رد فعل عنيف، قد يتسبب فى نفوره من شيخه، ومن درسه، وهذا خلاف ما حدث، مما يدل على أن هذه الطفولة كان فيها نوع من التهيئة النفسية والذهنية لفترة الدرس الجاد فيما بعدها [١].

لقد فتح الحكيم عينيه على حلقات العلم والدرس منذ بدأ يعقل، لأن أباه كان أحد علماء الفقه ورواة الحديث، كما يبدو من حديثه عنه، وقد أخذ أبوه يغرس فيه حب العلم، وتحصيل المعارف، ويحمله على ذلك حملا فى وقت مبكر، حتى امتلأ وقته منذ الصبا الباكر بالإقبال على الدرس وتحصيل العلم، بفضل تشجيع والده، وحثه على الاستزادة منه، مدفوعًا بحرص الأب، ومسئولية المربى، حتى أصبح العكوف على الدرس أمراً مألوفًا للحكيم فى سنة الباكر الذى يقطعه أترابه فى اللهو واللعب [٢]..

وقد كان أبوه أستاذه الأول ـ ولعله استغنى بذلك عن التردد على الشيوخ فى صباه الأول ـ ويفهم مما كتبه الحكيم عن تعليمه فى هذه السن المبكرة أن أباه كان يدرس له علم الرأى والآثار، أو بعبارة أخرى علم الحديث والفقه، فقد كان أبوه محدثا، ويروى الحكيم عنه فى كتبه جميعها [٣].

---

(١) الدكتور بركة «الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية» جـ ١، ص ٤٤.

(٢) الدكتور الجيوشى مقدمة كتاب «المسائل المكنونة» للترمذى ص ٩.

(٣) المصدر السابق ص ٩.

وهذا كله يجمله الحكيم فى عبارة موجزة بقوله :«كان بدو شأنى أن الله تبارك اسمه قيض لى شيخى ـ رحمة الله عليه ـ من لدن بلغت من السن ثمانيًا، يحملنى على تعلم العلم، ويعلمنى ويحثنى عليه، ويدئب ذلك فى المنشط والمكره، حتى صار ذلك لى عادة وعوضا عن اللعب فى وقت صباى، فجمع لى فى حداثنى علم الآثار، وعلم الرأى» (١).

ولاشك أن شيخ الحكيم ـ سواء كان والده أم غيره ـ قد وفق أيما توفيق فى أن يجعل الحكيم على معرفة بعلمين من أهم العلوم الإسلامية، وهما علم الحديث، وعلم الفقه، ولا حاجة بنا لنكد الذهن، ونزداد فى التفكير لمعرفة هذا الشيخ الذى ذكره الحكيم بأنه كان شيخا له. طالما أن المصادر وكتب الطبقات والتراجم لم تبين لنا ذلك، ويكفى أن الله تبارك اسمه قيض له شيخاً.

ولا ندرى على وجه التحديد إلى أى مدى استمر هذا الشيخ يعلمه، ولا ندرى إذا كان هناك من الشيوخ الآخرين من تتلمذ عليه الحكيم فى صباه، وفى صدر شبابه غير شيخه الذى ذكره ـ سواء كان والده أم غيره ـ لأن المصادر التى بأيدينا قد سكتت عن الحديث عن هذه الفترة من حياة الحكيم الترمذى (٢).

وإن كان مما لاشك فيه أن هناك من شيوخ الترمذى وأساتذته من قام بتعليمه إلى جانب والده أو شيخه، فكان يتردد على شيوخ ترمذ الآخرين ويأخذ عنهم،كما يأخذ لداته ونظراؤه. إلا أنه لم يذكر لنا واحداً منهم. ولعل مرد ذلك إلى أنه كان يرى أن ماتلقاه على أيديهم لم يخرج فى نطاقه عما تلقاه على يد شيخه (٣).

والتاريخ لم يحدثنا متى توفى والده، وإن كان من المؤكد أنه قام بالنصيب الأكبر فى تثقيفه وتوجيهه فى الفترة الأولى من حياته، ويؤخذ من كثرة روايته عن أبيه فى

---

(١) الدكتور عثمان إسماعيل يحيى «بدو شأن أبى عبدالله» داخل كتاب «ختم الأولياء» ص ١٤، ف ١، ط بيروت.
(٢) الدكتور الجيوشى «الحكيم الترمذى» ص ١٦، ط دار النهضة العربية.
(٣) الدكتور الجيوشى مقدمة كتاب «منازل العباد من العبادة» ص ١٠.

كتبه، أن أباه لم يمت إلا بعد أن بلغ سن الشباب، وحصل كثيراً من مسائل العلم[1].. وليس صحيحًا أنه مات وهو صغير ـ كما يروى فريد الدين العطار فى تذكرة الأولياء [2].

وقد كان لتوجيه والد الحكيم له منذ الصبا الباكر أثر بالغ فى تعلق الحكيم بالمعرفة وطلبها، والرغبة فى الاستزادة من العلم، والاستعداد للرحلة من أجل ذلك، كما كانت العادة جارية بذلك فى زمانه بالنسبة للطلاب الذين لم يعرفوا حدوداً تفصل بين بلد وآخر، والعلم لا وطن له، والرحلة فى طلبه أمر لابد منه للمجتمع، حتى يتسنى للعلماء اكتساب الفوائد، والكمال، ومباشرة التلقين، والمحاكاة من الفطاحل الأعلام.

وإذا نظرنا إلى العلماء المسلمين فى عصور ازدهار الحضارة الإسلامية، نجد أنهم لم يثنوا عزمهم، ولم يدخروا جهدهم، فى سبيل القيام بهذا العمل الجليل.. فقد أولع أكثرهم بالرحلة من بلد إلى بلد، ابتغاء العلم وتحصيله، وحرصاً منهم على اقتناص شوارده، وتقصى مسائله، وتتبع أطواره، وأحواله، ومعرفة كل ما يتصل بأئمته ورجاله. فجابوا الأقطار، وقطعوا الصحارى والقفار، ولم تعى هممهم بتحمل وعثاء السفر، ومشقات الرحيل، ولم يقعد بهم عن المضى إلى غاياتهم شظف من العيش، وقلة من المال، مهما بعدت المسافات، وطال زمن الاغتراب.

وقد روى المؤرخون كثيراً من أنباء تلك الرحلات التى قام بها طلاب العلم والعلماء، فقلما نجد عالما منهم إلا له أكثر من هجرة، إلى أكثر من بلد فى أقطار مختلفة.

ورجال الحديث كانوا يرحلون إلى الأمصار المختلفة حتى يقيدوا الأحاديث بأسانيدها ورواياتها.. وهؤلاء المحدثون كانوا من أنشط الناس للهجرات، ومن

---

(١) الدكتور الجيوشى «الحكيم الترمذى» ص ١٦، ط دار النهضة العربية.

(٢) فريد الدين العطار «تذكرة الأولياء» جـ ٢، ص ٩٠ تحقيق نيكلسون نقلا من كتاب الرياضة وأدب النفس للمستشرق آربرى والدكتور على حسن عبد القادر ص ٧.

أقدرهم وأصبرهم على تحمل عناء الارتحال، ووعثاء السفر.. وكان لابد لهم من ذلك فى سبيل طلب الحديث وتدوينه، وتحقيق رواياته، والتأكد من صحته وإسناده، لأن رواته من الصحابة كانوا قد تفرقوا فى الأمصار بعد الفتح، وقد أخذ الحديث عن هؤلاء الصحابة ـ المنبثين فى البلاد ـ وطبقات التابعين ومن بعدهم، فكان على ألسنة المحدثين فى كل مصر وبلد أحاديث، قد لا يتأتى لمحدثى الأمصار الأخرى معرفتها، لأنهم لم يقفوا عليها، ولم يسمعوا بها..

ومما سجله الأستاذ أحمد أمين فى صحائف التقدير لهؤلاء العلماء قوله: «ترى العالم فى المشرق، فإذا هو فى الأندلس، وفيما هو فى الأندلس إذا هو فى العراق، وفيما هو فى العراق إذا هو بمصر والشام.. لا يعوقهم قفر، ولايفت فى عزمهم صعوبة الطريق وأخطاره، سواء عليهم الصحراء وحرها، والبحار وأمواجها. إذ تغلغل فى نفوسهم اعتقاد أن طلب العلم جهاد، فمن مات فى سبيله مات شهيدا. هذا إلى أن العلم عند كثير منهم أصبح مقصداً لا وسيلة، يقصد لذاته، ويرغب فيه للذته» [1].

وحسب المفكر والباحث أن ينظر عبر التاريخ، ويستطلع سير الأعلام من العلماء «ليدرك إلى أى مدى كان طلاب العلم يرون الرحلة لهذا الهدف النبيل أمراً لازمًا، وفرضًا لابد من القيام به» [2].

لهذا اتفق الترمذى مع اثنين من أصدقاء العلم على القيام برحلة علمية يلقون خلالها شيوخ الحديث، وأهل المعرفة فى مختلف الأمصار، ويتلقون عنهم العلوم، ويأخذون عنهم.. غير أن هذه المرحلة لم تتم بالنسبة إلى الحكيم فقد طلبت إليه أمه أن يبقى بجانبها يرعاها، ويقوم على شئونها، لأنه ليس هناك من يقوم بهذا الواجب سواه.. ويبدو أن والده كان قد توفى، كما أن المصادر المطلعة لا تشير إلى وجود

---

(١) الأستاذ أحمد أمين «ظهر الإسلام» جـ ٢، ص ٤٠، ط بيروت.

(٢) الدكتور الجيوشى مقدمة «المسائل المكنونة» ص ١٠.

أخوة له.. ولعل ذلك كان السبب الأكبر فى تعلق أمه به، وحرصها على أن يكون معها فى وحدتها ومرضها..

وما كان الحكيم البار بأمه أن يتخلى عنها فى ذلك الوقت الذى تحتاج فيه إلى من يرعاها، وأن كانت الرحلة المرتجاة، تملأ كل أحاسيسه، والشوق الجارف إلى التزود، من المعرفة يشغل أيامه ولياليه، فانطلق صاحباه، وظل هو يبكى ضياع وقته، وإفلات الفرصة السانحة [1]..

وقد رسم الشاعر الفارسى فريد الدين العطار، صورة معبرة عن المشاعر المتضاربة التى اجتاحت كيان الحكيم، وتصارعت فى داخله، فيقول : «ذلك أنه كان قد عقد النية فى أول أمره على الرحلة لطلب العلم فى رفقة اثنين من اخوانه، وفى أثناء ذلك مرضت أمه، وقالت له : يابنى انى امرأة ضعيفة، لا عائل لى، ولا معين يعيننى، وإنك المتولى لأمرى، فإلى من تكلنى وتذهب؟ فنالت هذه الكلمات من نفسه، وعدل عن الرحلة، ومضى زميلاه فى سبيلهما. ثم مضى على ذلك بعض الوقت.. فبينما كان فى إحدى المقابر يبكى بكاءً شديداً، ويقول : «هاأنذا قد بقيت جاهلاً مهملاً، وسيرجع أصحابى،وقد حصلوا على العلم» إذ به يرى أمامه فجأة، شيخاً مشرق الوجه، فسأله الشيخ عن سر بكائه، فأفضى إليه بحاله .. فقال له الشيخ : ألا أعلمك فى كل يوم شيئاً من العلم، فلا يمر عليك كثير وقت حتى تسبق إخوانك.. فأجابه إلى ذلك. واستمر الشيخ على تعليمه كل يوم، ومضت على ذلك أعوام .. ثم عرف بعد ذلك أن الشيخ هو الخضر عليه السلام، وأنه إنما حصل على هذا ببركة دعاء أمه [2]. وأضاف العطار إلى ذلك راوياً عن أبى بكر الوراق: «أن الخضر كان يأتيه ليعلمه كل يوم أحد، حيث كانا يتذاكران العلم، ويتجاذبان الحديث» [3].

---

(١) الدكتور الجيوشى مقدمة «المسائل المكنونة» ص ١٠، ومقدمة «منازل العبادة» ص ١٠، وكتاب «الحكيم الترمذى» ص ١٧.

(٢) تذكرة الأولياء ط نيكلسون جـ ٢، ص ٩١ ـ ٩٢ نقلا من كتاب الحكيم الترمذى للدكتور الجيوشى ص ١٧، ١٨. ونقلا من كتاب الرياضة وأدب النفس ص ٨.

(٣) الدكتور آربرى وعلى حسن «كتاب الرياضة وأدب النفس»، ص ٨، وأبو بكر الوراق هو أبو بكر محمد بن عمر الحكيم الوراق الترمذى البلخى «القشيرى فى الرسالة» ص ٣٦ وأبا نعيم الأصفهانى فى «حلية الأولياء» جـ ١٠، ص ١٣٧.

ويقول الترمذى: «وهكذا علمنى درساً كل يوم حتى انقضت ثلاث سنوات» [1].

ويذكر الدكتور الجيوشى فى مقدمة تحقيقه لكتاب الترمذى «منازل العباد من العبادة أو منازل القاصدين إلى الله» : أنه وجد فى كتاب «الأدعية والطلسمات» المنسوب للترمذى : أن نوبات الحزن والبكاء كانت تهيج الترمذى كلما تذكر الفرصة التى ضاعت منه، ومخطوط الأدعية والطلسمات يصور نوبة من هذه النوبات التى كانت تنتاب الحكيم من حين لآخر. فقد جاء فيه :«فى يوم من أيام الجمع بينما كان الحكيم فى المسجد إذ تذكر الفرصة التى أفلتت منه بذهاب صاحبيه إلى العراق لطلب العلم، وعدم تمكنه من صحبتهما، بعد اتفاقهم على ذلك، وكان سبب تخلفه مرض أمه، وعدم إذنها له بالسفر، فلما تذكر الحكيم ذلك غلبه النحيب والبكاء، فاجتمع المصلون من حوله يسألونه عن السبب، وهو لايستطيع أن يجيب لشدة ما غلبه من البكاء، حتى ظن بعضهم أنه يبكى لفقدان أمه، وظن الآخرون أنه ألم به مرض شديد لا يستطيع تحمل آلامه.. وذهب آخرون أن به طائفًا من الجنون، جعله يبكى بدون سبب، ولم يجد الحكيم جوابًا، بل أخذ طريقه إلى خارج المسجد متجهًا إلى المقابر بالقرب منه، وهناك سقط فاقد الوعى لما به من الألم، ولم يكد يفيق حتى وجد رأسه فى حجر شيخ وقور، يشع النور من وجهه ولحيته البيضاء، فنهض مسرعًا وحياه بأدب واحترام.. وأقبل الشيخ على الحكيم يسأله: هل تعرف من أنا. وأجاب الفتى : فليقل الشيخ.. إنى أنا أخوك الخضر جئت إليك بأمر من الله، وأحضرت معى كتابا إذا التزمت بما فيه من وصايا وتعليم، فستصل إلى ماتريد وتتحقق لك أغراضك بتوفيق الله. وأدخل الشيخ يده فى جيبه وأخرج الكتاب، ثم بين الشيخ للحكيم كيف يأخذ نفسه بتعاليم الكتاب، وكيف ينظم حياته مع الناس، ثم أجازه ودعا له [2].

---

(١) ص ٢٤٤ Muslim saimt sana mystics Anbery

(٢) نقلا من مقدمة «منازل العباد من العبادة» للترمذى ص ١١، ومخطوط «الأدعية والطلسمات» وهو باللغة الفارسية وموجود بمكتبة أيا صوفيا تحت رقم ٨١٤، ومشكوك فى نسبته للترمذى ويبدو من عبارات المخطوط أن أحد المعاصرين للترمذى قد كتبه «الدكتور الجيوشى».

وقد نستفيد من النص الذى ورد عن فريد الدين العطار، والنص الذى جاء فى مخطوط «الأدعية والطلسمات» مدى ماكان يعتلج فى صدر الحكيم من الرغبة الملحة فى طلب العلم، حتى هيأ الله له من يعوضه مافاته من أمر السفر، ويفتح له بسبب ذلك من فيض الله، وخزائن علمه التى لاتنفد..

ولكن هل كف الترمذى الحكيم عن التفكير فى مثل هذه الرحلة؟ وهل قنع بما نال من المعرفة عن طريق ما كشف له؟ يبدو أن الحكيم يرقب الفرصة حتى سنحت له، وما أن تهيأت له حتى أزمع الخروج إلى مكة، يحج إلى بيت الله الحرام، وكانت سنه إذ ذاك سبعًا وعشرين سنة. ويبدو أن ذلك كان بعد وفاة أمه.. ولئن كانت الرحلة مقصدها الأول هو الحج، فلا بأس من أن تغتنم لتحصيل ما لم يمكن تحصيله من قبل، ففى طريقه إلى البيت المحرم، مر بالعراق ليأخذ عن علمائه، وهناك عرج على الكوفة والبصرة يأخذ عن شيوخها، وبقى بها إلى شهر رجب من نفس العام، ثم شد رحاله إلى مكة، وحل بها فى منتصف الشهر التالى، وظل مجاورا للبيت المحرم ملتزما لرحابه حتى حان وقت الحج، وكان يقضى أوقاته فى تلك الرحاب المقدسة فى العبادة والتضرع والدعاء إلى الله، وكان يكثر ويلح فى أوقات السحر من الليل عند باب الملتزم، ويبدو أنه داوم على ذلك خلال الأشهر الخمسة التى قضاها فى جوار البيت العتيق حتى ظفر بتوفيق الله له إلى تصحيح التوبة والخروج مما جل ودق، وأداء فريضة الحج، بعد هذا التمحيص الذى استمر خمسة أشهر متواصلة، انصهرت فيها نفسه، وأرهفت مشاعره، وانتعشت نوازع الخير فى داخله، واتصل قلبه بنور الله حتى أبصر طريقه [1].

وفى رسالة «بدو شأن أبى عبد الله» التى حققها الدكتور عثمان إسماعيل يحيى، يقول الحكيم عن هذه الرحلة: «حتى إذا قارب سنى سبعًا وعشرين أو نحوه، وقع علىّ حرص الخروج إلى بيت الله الحرام، فتهيأ إلىّ الخروج، فوقفت بالعراق طالبًا

---

(١) راجع الدكتور الجيوشى مقدمة « المسائل المكنونة » ص ١١، ١٢.

للحديث، وخرجت إلى البصرة، فخرجت منها إلى مكة فى رجب، فقدمت مكة فى بقية شعبان، فرزقنى الله المقام بها إلى وقت الحج » [١]..

والمتأمل فى هذا النص الذى تحدث فيه الترمذى عن رحلته يلاحظ أن الحكيم ذكر أنه مر بالعراق فى طريقه إلى مكة، ويبدو أنه ذهب إلى بغداد ولم يقم طويلا. وبالتالى لم يأخذ عن علماء بغداد كثيراً، مما يجعل علماء بغداد شيوخًا له، ويبدو ذلك واضحًا من تتبع ألقاب شيوخه من المحدثين، فهم إما كوفيون أو بصريون، وإن كان لم ينص صراحة إلا على الذهاب إلى البصرة.

وقد كانت رحلته إلى مكة فتحًا جديداً فى طريق الوصول، فقد حصّل القسط الوافى من ألوان العلوم والمعارف الأخرى التى كانت سائدة فى عصره كالفقه، والحديث، والتفسير، وعلم الكلام، ورأى أنه بحاجة إلى القرآن الكريم الينبوع الذى لا ينضب له معين، فسأل الله سبحانه وتعالى عند «الملتزم» وهو يطوف حول البيت أن يرزقه حفظ كتابه، ويقول : «فرجعت وقد ألقى على حفظ القرآن فى طريقى، فأخذت صدراً منه فى الطريق، فلما وصلت إلى الوطن يسّر الله علىّ ذلك بمنه حتى فرغت منه، فأقامنى ذلك بالليل فكنت لا أمـل من قراءته، حتى أنه كان ليقيمنى ذلك إلى الصباح ووجدت حلاوته»[٢].

ولاشك أن إتقان الحكيم الترمذى للقرآن الكريم بعد اتقان علم الآثار وعلم الرأى «كان ذا أثر بعيد فى اتجاهاته الفكرية وآرائه التى بسطها فى كتبه المختلفة، مما يشعر بثقافته الواسعة، ومعرفته العميقة بالقرآن الكريم وأسراره، والسنة النبوية ومناهجها، وانعكس ذلك انعكاساً واضحاً على كل ماكتبه، بحيث لاتكاد تجد

(١) راجع الدكتور عثمان يحيى «بدو شأن أبى عبد الله» ص ١٤، ط بيروت.

(٢) المصدر السابق ص ١٥ الفقرة الثانية.

صفحة واحدة من كتبه إلا ويستشهد على مايورده فيها من آراء بالقرآن الكريم والأحاديث النبوية التى كان محصوله منها وفيراً » [1].

وإذا كنا قد عرفنا أن والد الحكيم كان أحد علماء مدينة ترمذ ومحدثيها، وأن أمه كانت ذات معرفة بالحديث، وأن لذلك الأبوين الكريمين، مابدا واضحاً من اهتمام الحكيم بالعلم والمعرفة.. فإن حياته الأسرية يبدو أنها كانت حياة موفقة، والبيوت التى تمتلىء قلوب أفرادها بالمعرفة والقرآن الكريم والسنة النبوية، ترفرف عليها آيات السعادة والأمن، وقد تحدث الترمذى الحكيم عن زوجته حديثًا طيبًا، يشعر الباحث أنه كانت لها بعض التجارب الروحية، وكانت تشارك زوجها فى طريق الرياضة «والمعتقد أنها كانت على قدر لابأس به من الصفاء الروحى، والسعى الحثيث فى الوصول إلى الله، وكان الحكيم رب أسرة كبيرة، فقد ذكر فى بعض رسائله أنه بلغ من العمر خمسا وستين، وأن له خمسة من البنين» [2]. وذكر لنا فريد العطار: «أن أبا عبد الله تزوج وأنجب أولاداً [3]. وأنه كان عنده خادمة ترعى أطفاله، وتقوم على شئونهم، مما لايتهيأ إلا لأهل الغنى واليسار»[4].

ومما يسترعى الانتباه فى حياة الحكيم الثقافية : أن الهجويرى صاحب كتاب «كشف المحجوب» يذكر «أن الحكيم قد قرأ الفقه على واحد من خواص أصحاب أبى حنيفة»[5]. والباحث فى هذا الموضوع يجد أن المستشرق «نقولا هير» [6] يستبعد ذلك نظراً إلى أن أبا حنيفة توفى سنة خمسين ومائة للهجرة ويوافق على هذا الاستبعاد الدكتور عبدالفتاح بركة ويقول «ونحن نوافقه على ذلك، وان كان ابن عربى يذكر فى فتوحاته المكية أن الترمذى كان حنفى المذهب فى الأصل، قبل أن

---

(١) راجع الدكتور الجيوشى مقدمة «معرفة الأسرار» ص ١١.

(٢) الدكتور الجيوشى مقدمة «معرفة الأسرار» ص ١٥.

(٣) نقلا من كتاب «الرياضة وأدب النفس» المقدمة للدكتور آربرى وعلى حسن عبدالقادر ص ١٠.

(٤) الدكتور الجيوشى مقدمة «معرفة الأسرار» ص ١٥.

(٥) الهجويرى «كشف المحجوب» تحقيق الدكتورة اسعاد عبد الهادى جـ ١، ص٣٥٣ ،ط المجلس الأعلى بالقاهرة.

(٦) الدكتور نقولا هير مقدمة «بيان الفرق بين الصدر والقلب والفؤاد واللب» ص ٧، ط الحلبى ١٩٥٨.

يعرف الشرع من الشارع، لكن على فرض مارجحناه، من تاريخ ميلاد الترمذى، وأنه بدأ يدرس عام ثلاثة عشر ومائتين للهجرة، فإنه ينبغى أن يكون هذا الشيخ[١]. قد جاوز حينئذ الخامسة والسبعين حتى يتهيأ له أن يكون قد درس على يد أبى حنيفة، ويدرس للترمذى بعد ذلك، وهذا فى غاية البعد»[٢].

وإننى أرى أن البحث يهدى إلى أن ماذكره الهجويرى يتفق مع الحقيقة العلمية. لأن الهجويرى من علماء القرن الرابع والخامس الهجرى، وكان كثير الرحلات فى التقصى فجاب الأقطار، وكان من أتباع الحكيم الترمذى، فإذا ماقال فمقولته تحتاج منا إلى إمعان نظر، وتدقيق فى العبارة، وتحليل للكلمات، وقد يراد من العبارة أن الحكيم «قرأ الفقه على واحد من خواص أصحاب مذهب أبى حنيفة» ويؤيد هذا ويدعمه ماذكره ابن عربى[٣]. من أن الحكيم كان حنفى المذهب فى الأصل، وابن عربى حجة فيما يقول، لأنه اطلع على مؤلفات الحكيم وكان بها خبيراً.

ويقف بجانب كل هذا أن منطقة خراسان كانت فى الفقه على مذهب أبى حنيفة، حتى يكاد يعم رقعتها، ويبلغ أطرافها، وكان يلاحقه مذهب الشافعى، يحاول أن يدركه فى أدنى بلاد الإقليم، ويكاد يقطع عليه طريقه فى بعض الأطراف العليا الشمالية وان نجح فى أن يعيش معه جنبا إلى جنب فى كثير من بلاد الوسط، وان تكن هذه الحياة سلسلة من التعصب والمغالبة[٤]..

ولقد وصف المقدسى تفاصيل ذلك إذ يقول فى وصف «خراسان» : «والغلبة فى الأقليم لأصحاب أبى حنيفة»[٥]..

---

(١) يلاحظ أن الدكتور عبدالفتاح نقل كلمة «الشيخ» عن المستشرق نقولا هير. لكن الكلمة وردت فى الترجمة العربية الصحيحة «على واحد من خواص أبى حنيفة» الهجويرى.

(٢) الدكتور عبدالفتاح بركة «الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية» جـ١، ص ٣٧.

(٣) ابن عربى «الفتوحات المكية» جـ ٢، ص ١١٤.

(٤) راجع الحسينى «المعرفة عند الحكيم» ص ٤٢.

(٥) راجع المقدسى «أحسن التقاسيم» ص ٣٢٣.

وإذا كان السبكى فى طبقات الشافعية الكبرى يعد الحكيم بين علماء الشافعية، ويترجم له[١].. فإن ذلك راجع إلى مكانة الحكيم الفقهية، ويبدو أنه اهتم بفقه أبى حنيفة وفقه الشافعى، مما يسر له أن يكون من أهل الفتوى، وكانت الرسائل ترد إليه من شتى الأقاليم، تطلب الفتوى فى شتى مسائل الحقيقة والشريعة. فجاء السبكى واطلع على مكانة الحكيم الفقهية فعده من الشافعية.

ومؤلفات الترمذى وان كانت لا تظهره فى ثوب الفقيه، فإنها تقدم دليلا واضحًا على إلمامه بكل فروع الفقه ومسائله فى أكثر مذاهبه.. فالترمذى فى مؤلفاته يناقش كثيراً من مسائل الأصول، كما يناقش طائفة من الأشباه والنظائر، والحيل والمخارج، وبقية علوم الفقه، ثم هو يعرض بعد ذلك فى مؤلفاته لأكثر أبواب الفقه، فيتكلم فى الصلاة، والزكاة، والحج، والصوم.. أما تاريخ الفقه وتاريخ رجاله وتاريخ مذاهبه، والخصائص الأساسية المميزة لكل مذهب وفقيه، فقد كانت واضحة فى عقله وثقافته[٢]..

فالترمذى غزير المادة، واسع الثقافة، لم نشهد مثل ذلك عند غيره من مؤلفى عصره، لأن ثقافته تمتد إلى جميع فروع المعرفة فى عصره.. وثقافة الترمذى الأولى التى تطالعنا بين ثنايا مؤلفاته هى ثقافة المحدث الذى اتصل بجميع فروع الحديث. وإنا وان كنا لانراه حريصًا على أن ينصرف إلى جمع الحديث على عادة المحدثين فى عصره، بل يقنع من ذلك بالاختيار فحسب. إلا أننا نرى أنه فى اختياره للأحاديث تلك النزعة التى كانت تسيطر على هؤلاء الذين انصرفوا إلى جمع الصحاح أو السنن [٣].

فقد كان حريصا كذلك على أن يقدم لنا طائفة من الأحاديث تضبط أعمال الفرد

---

(١) راجع السبكى «طبقات الشافعية» جـ ٢ ص ٢٤٥.

(٢) راجع الحسينى «المعرفة عند الحكيم الترمذى» ص ٢٩.

(٣) المرجع السابق ص ٢٨.

والجماعة فى الاعتقاد، والعبادة، والمعاملات، كما تتصل بمكارم الأخلاق، والزهد[١].

وامتدت ثقافة الترمذى كذلك إلى التصوف، فهى تشهد بأنه اتصل بالصوفية وأخذ عنهم، وكتب لهم وعلى طريقتهم، وكان يقدم ما يضبط أعمال القلوب، وإخضاع أعمال الجوارح لها، ويعمل على تنمية الجانب الروحى من الفرد والمجتمع..

(٤) راجع الحسينى «المعرفة عند الحكيم الترمذى»، ص ٢٨ بتصرف.

المبحث الثالث

شيوخ الحكيم وأساتذته

لاخفاء أن القارئ لمؤلفات الترمذى، يلاحظ أنه لم يتحدث عن شيوخ له، تعلم منهم، وأخذ عليهم، إلا من أشار إليه فى رسالته : «بدو شأن أبى عبد الله» من قوله :«كان بدو شأنى أن الله ـ تبارك اسمه ـ قيض لى شيخى رحمة الله عليه، من لدن بلغت من السن ثمانيا يحملنى على تعلم العلم ويعلمنى ويحثنى عليه ويدئب ذلك فى المنشط والمكره.. فجمع لى فى حداثتى علم الآثار وعلم الرأى»[١]..

وسواء كان هذا الشيخ والده أو غيره، فهو شيخ لاشك فى مشيخته، وقد تتلمذ عليه الحكيم وظل ملازمًا له، مستفيداً من علمه، حتى وصل الحكيم إلى الجمع بين علم الفقه، وعلم الحديث..

وحين تهيأ الترمذى للخروج لأداء فريضة الحج، وقف بالعراق طلبا للحديث، ولم يذكر لنا أسماء الشيوخ الذين التقى بهم فى بغداد، والبصرة، والكوفة، وأخذ عنهم، لكن كتب الرجال والطبقات ذكرت لنا بعض من أخذ عنهم. فالسبكى فى طبقاته يذكر : أنه درس الحديث على جماعة من خراسان والعراق، فذكر أباه، وقتيبة بن سعيد، وصالح بن عبد الله الترمذى، وصالح بن محمد الترمذى، وعلى بن حجر السعدى، ويعقوب الدورقى، وسفيان بن وكيع[٢]..

---

(١) راجع الترمذى «بدو شأن أبى عبدالله» تحقيق الدكتور عثمان يحيى ص ١٤ ضمن كتاب ختم الأولياء.

(٢) السبكى «طبقات الشافعية الكبرى» جـ٢، ص ٢٤٥.

وذكر الذهبى مايماثل ذلك عن شيوخه، وزاد : الحسن بن عمر بن شقيق، ويحيى ابن موسى، وعتبة بن عبد الله المروزى، وعباد بن يعقوب الرواجينى[1]..

وابن حجر العسقلانى فى كتابه «لسان الميزان» : يذكر من شيوخه ـ من غير ماورد عند السبكى والذهبى ـ أبى عبيد، وابن أبى السفر، وعلى بن خشرم، ومحمد ابن على الشقيقى[2]..

ولايخفى على الباحث أن السبكى بعد أن ذكر أسماء الشيوخ التى أخذ عنها الحكيم الحديث فى خراسان والعراق قال: «وغيرهم» [3].. والذهبى قال : «وطبقتهم»[4].. وابن حجر قال : «وآخرين».. «وقد لقى الأئمة الكبار وأخذ عنهم وفى شيوخه كثرة»[5]..

وهذا يعطينا أن الحكيم الترمذى قد تلقى الحديث على كثيرين من رجاله ومعرفة هؤلاء الرجال تحتاج إلى جهد بالغ، ومشقة فى البحث، نظرا لكثرة مؤلفات الترمذى المخطوطة.

يقول الدكتور الجيوشى : «ولو أردنا أن نحصر أسماء شيوخ الترمذى وخاصة من المحدثين، فما علينا إلا أن نقوم بعملية مسح لمؤلفاته، ونستعرض سلاسل الإسناد ونأخذ المحدث الأخير الذى تلقى عنه الحكيم مباشرة. وقد قمت بهذا فعلا مدفوعا بحب الاستطلاع، ومحاولة معرفة درجة شيوخ الحكيم من المحدثين، ومايتمتعون به من ثقة عند علماء الرجال، فكانت قائمة الأسماء هى نتيجة هذه السباحة الشاقة فى مؤلفات الترمذى وأغلبها مخطوطات تقارب الستين بين رسالة وكتاب، وأغلب شيوخه من المحدثين المقبولين لدى علماء الحديث» [6]..

---

(١) الذهبى «تذكرة الحفاظ» جـ ٢، ص ٦٤٥.

(٢) ابن حجر «لسان الميزان» جـ ٥، ص ٣٠٨.

(٣) السبكى «طبقات الشافعية الكبرى» جـ ٢ ص ٢٤٥.

(٤) الذهبى «تذكرة الحفاظ» جـ٢، ص ٦٤٥.

(٥) ابن حجر «لسان الميزان» جـ ٥، ص ٣٠٨.

(٦) الدكتور الجيوشى «الحكيم الترمذى» ص ٣٩ ، ٥٢.

والبحث قد يكشف عن معرفة شيوخ آخرين للترمذى.. وإننا نجد أنه من المستحسن أن نذكر بعض الأسماء البارزة لشيوخه وأساتذته. ومن هؤلاء : على بن الحسن الترمذى والده، وقد أورد ذكره أبو بكر أحمد بن على الخطيب البغدادى المتوفى سنة ٤٦٣ هـ، فى كتابه «تاريخ بغداد» على أنه : على بن الحسن بن بشير ابن هارون الترمذى، وأنه حدث ببغداد عن شداد بن حكيم، وصالح بن عبد الله الترمذى، وأنه قد روى عنه محمد بن مخلد [(١)]..

ومن هؤلاء قتيبة بن سعيد الثقفى البلخى، وقد ورد ذكره فى «تاريخ بغداد»[(٢)] ويؤخذ منه أنه كان يطلب علم الرأى، ثم وجه إلى تحصيل الأثر، فبدأ بالرحلة منذ كان شابًا، ورحل إلى العراق، والمدينة، ومكة، والشام، ومصر، وسمع مالك بن أنس، والليث بن سعد، وعبد الله بن لهيعة، وبكر بن مضر، ويعقوب بن عبد الرحمن، وحماد بن زيد، وأبا عوانة، وإسماعيل بن جعفر، وعبد الواحد بن زياد، وسفيان بن عيينة.

وروى عنه أحمد بن حنبل وأبو خيثمة زهير بن حرب، وأبو بكر بن أبى شيبة، والحسن بن محمد بن صباح الزعفرانى، والحسن بن عرفة، ويوسف بن موسى، وأبو داود السجستانى، وجعفر بن محمد بن شاكر الصائغ، وإبراهيم الحربى، وموسى بن هارون، وأبو زرعة، وأبو حاتم الرازيان، والبخارى ومسلم فى صحيحيهما، وَخَلْقٌ سوى هؤلاء. وكان حسن الخلق، واسع الرحل، غنيًا من ألوان الأموال، من الدواب، والأبل، والبقر، والغنم، وكان كثير الحديث، كما كان ثبتًا فيما يرويه، صاحب سنة وجماعة، ذكره أحمد بن حنبل فأثنى عليه، وسئل عنه يحيى بن معين فقال: ثقة، وقال عنه قتيبة بن سعيد البقلانى : ثقة مأمون. وقال عنه عبد الرحمن بن يوسف بن

(١) البغدادى «تاريخ بغداد» الجزء ١١،ص ٣٧٣،ط القاهرة، وراجع الدكتور بركة «الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية» جـ ٢، ص ٣٨.

(٢) المصدر السابق الجزء ١٢، ص ٢٦٤.

خراش: قتيبة بن سعيد صدوق.. ولد في نحو خمسين ومائة للهجرة، وتوفى عن نحو تسعين عاما فى سنة أربعين ومائتين بقرية من «رستاق» بلخ تدعى بغلان كان قد أقام بها [1].

ومن هؤلاء الرجال : صالح بن عبدالله الترمذى، وقد جاء ذكره فى تاريخ بغداد وفى لسان الميزان [2]، وقد سكن بغداد، وحدث بها عن مالك بن أنس، وحماد بن يحيى الأبح، وعبد الوارث بن سعيد، وعبثر بن القاسم، وشريك بن عبد الله، وجعفر ابن سليمان، وفرج بن فضالة، وعمر بن هارون البلخى وغيرهم، وروى عبد الله بن أحمد بن حنبل، وأبو زرعة، وأبو حاتم الرازيان وغيرهم.. قال أبو حاتم: هو صدوق. وقال ابن حبان فى تاريخ الثقات : صالح بن عبد الله الترمذى صاحب سنة وفضـــل[3]..

ومن هؤلاء الحسن بن عمر بن شفيق البلخى، قال عنه صاحب «تاريخ بغداد »[4]. أنه كان يتجر إلى بلخ، فعرف بالبلخى، قدم بغداد، وحدث بها عن أبيه وعن عبدالوارث بن سعيد، وجعفر بن سليمان، وغيرهم كما روى عنه عبد الله بن أحمد ابن حنبل، وأبو زرعة، وأبو حاتم الرازيان، وموسى بن إسحاق الأنصارى، والحسن بن الطيب الشجاعى. وقال ابن أبى حاتم: سئل أبو زرعة عنه فقال: «لابأس به» وسئل أبى عنه فقال: «صدوق». وقال محمد بن إسماعيل البخارى: الحسن ـ يعنى عمر بن شقيق ـ «صدوق» كما قال على بن محمد الحبيبى ـ بمرو ـ سألت أبا على صالح بن محمد جزرة الحافظ عن الحسن بن عمر بن شقيق فقال: «شيخ صدوق». ويقال أنه مات سنة ثلاثين ومائتين[5].

ومن هؤلاء : يعقوب بن شيبة بن الصلت، وهو يعقوب بن شيبة بن الصلت بن

(١) انظر الدكتور بركة «الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية» جـ ١، ص ٣٩.

(٢) البغدادى «تاريخ بغداد» جـ ١ ص ٣١٥ وابن حجر «لسان الميزان» جـ ٣ ص ١٧٦.

(٣) الدكتور بركة «الحكيم الترمذى» جـ١،ص ٣٩.

(٤) البغدادى «تاريخ بغداد» جـ ٢، ص ١٧٣.

(٥) الدكتور بركة «الحكيم الترمذى» جـ ١، ص ٤٠.

عصفور، أبو يوسف السدوسى، من أهل البصرة، ورد ذكره فى تذكرة الحفاظ وتاريخ بغداد[١]، كان من فقهاء البغداديين على قول مالك، وكان من ذوى السرو، كثير الرواية والتصنيف.. سمع على بن عاصم، وزيد بن هارون، وروح بن عبادة، وعنان ابن مسلم، ويعلى بن عبيد، ومعلى بن منصور، ومحمد بن عبدالله الأنصارى، وأبا النصر هاشم بن القاسم، وأسود بن عامر، وأبا نعيم، وقبيصة بن عتبة، ويحيى بن أبى بكر، وكثيرا من أمثالهم، وكان ثقة، وصنف مسندا معللاً لم يتممه [٢].

ولو ذهبنا نستقصى شيوخه من رسائله، بهذه الكيفية لاتسع الأمر، ولوجدنا مصداق ماذكره ابن حجر فى لسان الميزان، نقلا عن ابن النجار فى ذيله على تاريخ بغداد: «من أن فى شيوخه كثرة» إلا أنه يكفى ماذكرناه منهم لمعرفة البحر الذى كان يستقى منه نشاطه العلمى.

على أنه لايفوتنا أن نذكر أن الترمذى ـ كما جاء فى رواية فريد الدين العطار وكتاب «الأدعية» ـ قد تعلم فى فترة من فترات حياته، على يد الخضر، وكان الخضر يأتيه ليعلمه كل يوم، حتى انقضت ثلاث سنوات على ذلك[٣].

فإذا أخذنا بروايات ماجاء فى تذكرة الأولياء لفريد الدين العطار، ومخطوط «الأدعية والطلسمات» مأخذ القبول، فلا مناص ـ كما يقول الدكتور الجيوشى ـ من عد الخضر شيخا للحكيم، بل يكون هو فقط شيخه فى مجال المعرفة الصوفية [٤].

ويقول العلماء: «اننا ـ هنا ـ أمام احتمالين: إما أن نرفض الرواية من أساسها،

---

(١) نقلا عن الدكتور بركة «الحكيم الترمذى» جـ ١، ص ٤٧، وانظر البغدادى «تاريخ بغداد» جـ ١٤، ص ٢٨١ وابن حجر «لسان الميزان» جـ ٢، ص ١٤١.

(٢) الدكتور بركة «الحكيم الترمذى» جـ ١، ص ٤٣.

(٣) فريد الدين العطار «تذكرة الأولياء» نيكلسون جـ ٢، ص ٩١ ـ ٩٢ نقلا من كتاب:«الحكيم الترمذى» للدكتور الجيوشى ص ١٧ـ ١٨ ومقدمة كتاب «الرياضة وأدب النفس» للمستشرق آربرى والدكتور على حسن ص٨، ومخطوط الأدعية.

(٤) الدكتور الجيوشى «الحكيم الترمذى» ص ٣٨.

وحيثيات الرفض لاتعوزنا، ومن أقواها أنها لم تصح الإشارة إليها فى «بدو شأن أبى عبدالله» وحينئذ لايمكن أن نعتبر الخضر أحد أساتذة الحكيم الترمذى. وأما أن نقبلها على مسئولية رواتها، وحينئذ نعتبر الخضر واحدا من شيوخ الحكيم، وخاصة أنه لم يرد فيما نسب إلى الترمذى من قريب أو بعيد إشارة إلى أحد من شيوخه إلا والده، وما روى حول الخضر» [١].

والخضر ـ بكسر الخاء مع سكون الضاد، وبفتح الخاء مع سكون الضاد وكسرها ـ لقب السعيد الذى جاء فى قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [٢].. ولقب بهذا لأنه كان إذا صلى اخضر ماحوله. وقيل لأنه جلس على الأرض فاخضرت تحته، وكنيته أبو العباس. واسمه «بليا» وهو من نسل نوح، وكان أبوه من الملوك. وقيل كان من أبناء الملوك الذين تزهدوا وتركوا الدنيا [٣].

قال شيخ الإسلام فى شرحه على البخارى فى كتاب «العلم»: واختلف فى الخضر أهو نبى، أو رسول، أو ملك، أو ولى، والصحيح أنه نبى [٤]. والصوفية يرون أنه ولى [٥]..

ويرى البخارى، وابن المناوى، وأبو بكر بن العربى، وأبو يعلى بن الفراء، وابراهيم الحربى، وأبو طاهر العبادى، وآخرون: «أن الخضر غير موجود بجسده، وأنه مات» لقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾ [٦].

ويرى ابن الصلاح والثعلبى، والنووى، والحافظ بن حجر، وجماهير الصوفية،

(١) الدكتور الجيوشى «الحكيم الترمذى» ص ٣٩.
(٢) سورة الكهف، الآية ٦٥.
(٣) الجمل «الفتوحات الألهية» جـ٣، ص ٣٥، ط الحلبى وشركاه.
(٤) الجمل «الفتوحات الآلهية» جـ ٣، ص ٣٥.
(٥) الشيخ محمد زكى ابراهيم «قصة الخضر والصوفية» ص ٧، ط العشيرة المحمدية ١٣٩٠هـ.
(٦) سورة الأنبياء، الآية ٣٤.

والعلماء، وأهل الصلاح، أنه حى بجسده، وموجود يرزق [1].

واننا نجد أن الإمام الألوسى فى كتابه «روح المعانى» فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى «يتناول موضوع الخضر بتوسع وإفاضة ثم يقول :«ثم اعلم بعد كل حساب أن الأخبار الصحيحة النبوية والمقدمات الراجحة العقلية تساعد القائلين بوفاته عليه السلام أى مساعدة وتعاضدهم على دعواهم أى معاضدة ولامقتضى للعدول عن ظواهر تلك الأخبار إلا مراعاة ظواهر الحكايات المروية ـ والله تعالى أعلم بصحتها ـ عن بعض الصالحين الأخيار وحسن الظن ببعض السادة الصوفية فإنهم قالوا بوجوده إلى آخر الزمان على وجه لايقبل التأويل»[2].

ثم يذكر الألوسى أن ابن عربى فى الفتوحات المكية الباب الثالث والسبعين يؤكد وجود الخضر عليه السلام حياً. ويعلق الألوسى بعد ذلك بقوله : «وعلم منه القول برسالة الخضر عليه السلام وهو قول مرجوح عند جمهور العلماء والقول بحياته وبقائه إلى يوم القيامة»[3].

وذكر الجمل فى الفتوحات الآلهية: أن الجمهور اتفق على أنه حى إلى يوم القيامة لشربه من ماء الحياة[4]..

فكثير من العلماء يرون: أن الخضر أما أن يكون حيا بجسده وروحه، وليس ذلك ببعيد (والنتيجة أنه موجود).

وأما أن يكون حيا بروحه فقط، وروحه بحكم خصوصيته منطلقة من عالم البرزخ، طوافة بعالم الدنيا، متجسدة فيه. وليس ذلك ببعيد أيضاً.. فالنتيجة أنه موجود.. أذن فعلى القول بالحياة أو الممات هو موجود .. والقول بلقائه أو رؤيته صدق محض، ومما يروى عنه على ألسنة أهل الله، حقيقة واقعة[5].

---

(١) الشيخ محمد زكى إبراهيم «قصة الخضر والصوفية» ص ٩.

(٢) الألوسى «روح المعانى» جـ ٥، ص ٣٢٨، ط إدارة الطباعة المنبرية ـ بيروت لبنان.

(٣) روح المعانى جـ ٥، ص ٣٢٩.

(٤) الجمل «الفتوحات الآلهية» جـ٢، ص ٣٥.

(٥) الشيخ محمد زكى إبراهيم «قصة الخضر والصوفية» ص ١٠، ط مجلة المسلم عدد صفر ١٣٩٠ هـ القاهرة.

فلا غرابة أذن أن يكون الحكيم الترمذى التقى بالخضر، وتعلم منه، وأخذ عنه..يقول أبو بكر محمد بن عمر الوراق: عن أصحاب الحكيم الترمذى: أعطانى الحكيم الترمذى كراسة قائلاً: ألقها فى جيحون. فقال: فلم يطعنى قلبى، وأخفيتها فى منزلى، وجئته وقلت: ألقيتها. فقال: ماذا رأيت؟ قلت: لم أر شيئا. قال لم تلقها. عد وألقها فى البحر. فرجعت وقد استحوذ وسواس ذلك البرهان على قلبى، وألقيتها فى الماء. فانشق الماء وظهر صندوق مفتوح، فلما وقعت فيه. أغلق الغطاء. فعدت ورويت له ماحدث. فقال: الآن ألقيتها. وقلت: أيها الشيخ ما سر هذا؟ حدثنى به. قال : كنت قد صنفت تصنيفا فى الأصول والتحقيق، يعجز الفهم عن إدراكه، فطلبه منى أخى الخضر عليه السلام، فأمر الله تعالى الماء أن يوصله إليه[1].

وقد تردد فى كتب الطبقات أسماء ثلاثة من كبار شيوخ الصوفية، التقوا بالحكيم، وكانت له معهم صحبة، لقى أبو تراب النخشبى، وصحب يحيى بن الجلاء، وأحمد بن خضرويه [2]. وأبو تراب النخشبى من جلة مشايخ خراسان، والمذكورين بالعلم، والفتوة، والتوكل، والزهد، والورع. قال ابن الفرجى:«رأيت حول أبى تراب من أصحابه عشرين ومائة صاحب ركوة، قعودا حول الأساطين، مامات منهم على الفقر إلا أبو عبيد البسرى وابن الجلاء» .. وقال ابن الجلاء: لقيت ستمائة شيخ ما لقيت فيهم مثل أربعة: أولهم أبو تراب النخشبى»[3].. ذكره السلمى والسبكى والشعرانى فى كتبهم عن الطبقات. ويقول عنه السبكى أنه كان شيخ عصره لا مدافعة، جمع بين العلم والدين، زاهدا ورعا متوكلا متبتلا[4].. ويحيى بن الجلاء كان من جلة مشايخ الشام، وكان عالما ورعا. ويقول إسماعيل بن نجيد: «كان يقال

(١) الهجويرى «كشف المحجوب» جـ ١،ص ٣٥٤.

(٢) الدكتور الجيوشى «الحكيم الترمذى» ص ٣٧.

(٣) السلمى «طبقات الصوفية» ص ٣٤، ط كتاب الشعب. وطبقات الصوفية تحقيق شريبة ص ١٤٦، ط دار التأليف بالمالية بمصر.

(٤) السلمى «طبقات الصوفية» ص ٣٤، وطبقات الشافعية جـ ٢، ص ٣٠٦، والطبقات الكبرى ص ٧١.

أن فى الدنيا ثلاثة من أئمة الصوفية لارابع لهم : الجنيد ببغداد، وأبو عثمان بنيسابور، وأبو عبد الله بن الجلاء بالشام»[١].

وأحمد بن خضرويه ذكره أبو نعيم فى الحلية وأبو عبدالرحمن السلمى فى طبقاته، وقد جاء عنه أنه من كبار مشايخ خراسان، ومن مذكورى مشايخها بالفتوة. قيل لأبى حفص:من أجل من رأيت من هذه الطبقة؟ قال: مارأيت أحدا أكبر همة، ولا أصدق حالا من أحمد بن خضرويه[٢].

هؤلاء كان للحكيم مع بعضهم صحبة، ومع بعضهم الآخر لقاء. وهذا لايعنى أنه كانت هناك تلمذة من الحكيم عليهم، وإنما هو لقاء الأقران والنظراء، ولو كان هناك شئ من هذا لأخبرنا الحكيم عنه فى مجال عرضه لنا أطوار تقدمه الروحى، وبحثه عمن يرشده طريقه[٣].

ولايغيب عن الباحث أن الحكيم قد تتلمذ على كتاب «الأنطاكى» وقد وقع الكتاب فى يده، فاهتدى عن طريقه إلى شئ من رياضة النفس. ويقول الحكيم فى ذلك : «وقع إلى كتاب الأنطاكى فنظرت فيه فاهتديت لشئ من رياضة النفس، فأخذت فيها»[٤].

هذا الكتاب الذى يذكره الحكيم، ويعزوه إلى الأنطاكى هو فى الحقيقة الشيخ الذى كان له أكبر الأثر فى حياة الحكيم الترمذى. فمن هو هذا الأنطاكى الذى يقصده الحكيم؟[٥].

---

(١) السلمى «طبقات الصوفية» ص ٤١، ط الشعب وص ١٧٦، بتحقيق نور الدين شريبة.

(٢) السلمى «طبقات الصوفية» ص ٢٥، ط الشعب.

(٣) الدكتور الجيوشى «الحكيم الترمذى» ص ٣٧، ط دار النهضة المصرية.

(٤) الترمذى «بدوشأن أبى عبدالله» ص ١٥، ضمن كتاب ختم الأولياء.

(٥) الدكتور بركة «الحكيم الترمذى» ص ١٨٧.

تذكر كتب التراجم بهذا اللقب ثلاثة من شيوخ الصوفية :

* أبو عبد الله أحمد بن عاصم الأنطاكى، من أقران بشر بن الحارث، والسرى، والحارث المحاسبى، ويقال أنه رأى الفضل بن عياض، ومن أصحاب أبى العباس بن عطاء، والحريرى. من أهل بغداد، رحل إلى الشام ثم عاد، توفى سنة ٣٦٧هـ[١].

* وأبو محمد عبدالله بن خبيق بن سابق الأنطاكى، صحب يوسف بن أسباط وهو من الزهاد الأكياس فى أكل الحلال، والورعين فى جميع الأحوال، أصله من الكوفة، ولكنه من الناقلة إلى أنطاكية[٢]، وطريقته فى التصوف طريقة النووى فإنه صحب أصحابه[٣].

* وأبو محمد عبدالله بن محمد، بغدادى المولد والمنشأ، صحب الجنيد وغيره، وكان فقيها على مذهب مالك، مات سنة ٣٣٤ هـ[٤].

قال الكلاباذى فى كتابه «التعرف لمذهب أهل التصوف» : «فيمن صنف فى المعاملات: أبو محمد عبدالله بن محمد، وأبو عبدالله أحمد بن عاصم الأنطاكيان، وعبدالله بن خبيق الأنطاكى»[٥]. فياترى: أى أنطاكى من هؤلاء وقع كتابه فى يد الحكيم؟ ويقول الدكتور بركة: أنه بمقارنة النصوص التى أوردتها الكتب، وجدنا أنها تكاد تنطبق فى كثير من أوجه الشبه والمطابقة مع ماورد فى كتب الحكيم ـ أنه هو

---

(١) الكلاباذى «التعرف لمذهب أهل التصوف» ص ٤٥ الطبعة الثانية، وانظر الشعرانى فى كتابه الطبقات الكبرى جـ ١، ص ٧١، ط صبيح. والسلمى «طبقات الصوفية» ص ٣٣.

(٢) أنطاكية بتخفيف الياء قصبة العواصم من الثغور الشامية، وهى من أعيان البلاد وأمهاتها. وكل شئ عند العرب من قبل الشام فهو «أنطاكى» .. فتحها أبو عبيدة عامر بن الجراح، واستمرت فى يد المسلمين إلى أن سقطت فى أيدى الروم سنة ٣٥٣ هجرية. ثم استردت سنة ٤٧٧ هـ «راجع معجم البلدان» جـ ١ ص ٣٥٣ ـ ٣٥٩.

(٣) السلمى «طبقات الصوفية» تحقيق نورالدين شريبة ص ١٤١، ط دار التأليف بالمالية بمصر.

(٤ـ٥) أبو بكر محمد الكلاباذى «التعرف لمذهب أهل التصوف» ص ٤٥، ط مكتبة الكليات الأزهرية.

الأنطاكى المقصود، يقول القشيرى أن أبا سليمان الدارانى كان يسميه جاسوس القلوب لحدة فراسته[1].

وسواء كان هذا الأنطاكى أو ذاك، فإن الحكيم قد اهتدى بعد النظر فى كتابه لشئ من رياضة النفس، فأخذ فيها، وأعانه الله عليها[2]..

واذا أردنا أن نعزو الحكيم إلى أحد المدارس العلمية ـ كما يحلو لبعض الباحثين ـ فقد صحب أبا تراب النخشبى، وأحمد بن خضرويه، وهما من جلة وأكابر مشايخ خراسان وصحب يحيى بن الجلاء البغدادى، وتتلمذ على كتاب «الأنطاكى» وهو من شيوخ مدرسة الشام ذات الصلة الوثيقة بمدرسة مصر. وكان على صلة وثيقة بمدرسة نيسابور الملامتية[3] حيث كان أحد من ينتمون إلى هذه المدرسة تلميذا له وهو أبو على الحسن بن على الجوزجانى[4] ولعل البحوث والدراسات الإسلامية تكشف عن شيوخ اتصل بهم الحكيم الترمذى.

وإذا كنا قد عرفنا: أن البحث العلمى، لايرى مانعا من أن يكون الحكيم الترمذى قد التقى بالخضر، وأخذ عنه ـ كما جاء فى بعض الروايات ـ فإن الباحث يرى أن قصة التقاء الحكيم بالخضر ـ التى ذكرها فريد الدين العطار فى كتابه «تذكرة الأولياء» ـ كانت بدايتها قبل رحلة الحكيم إلى العراق والحج. التى بدأها حين بلغت سنة سبعا وعشرين عاما.

وليس هناك مايمنع من أن يكون الحكيم التقى بالخضر بعد ذلك.. ولكن الذى يهمنا معرفته. أن الحكيم ذكر فى كتابه :«بدو شأن أبى عبدالله» : أنه بعد أن رجع إلى الوطن ـ بعد رحلة طلب العلم، وأداء فريضة الحج ـ أخذ يتتبع محامد الرب،

---

(١) الدكتور بركة «الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية» جـ ١، ص ١٨٨. والرسالة القشيرية ص ١٩.

(٢) الدكتور بركة «الحكيم الترمذى» جـ ١، ص ١٨٨.

(٣) انظر الدكتور بركة «الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية» جـ ١ص ٤٤ ط الأزهر.

(٤) أبو العلا عفيفى «الملامتية والصوفية وأهل الفتوة» ص ١٠٨، ط القاهرة ١٩٤٥م.

ويلتقط محاسن الكلام، ويسترشد فى البلاد عمن يرشده الطريق، أو يعظه بشئ. فلم يجد الشيخ الذى يطمئن إليه[1].

وهذا يعطينا دليلا على أن الحكيم كان يؤمن بقاعدة: «أخذ العلم والعمل عن المشايخ». وأن ضبط النفس بأصل يرجع إليه فى العلم والعمل لازم لمنع التشعب والتشعث[2].

ولكن ماذا يفعل السالك الذى يطلب الطريق إذا لم يجد الشيخ الذى يأخذ عنه العلم والعمل؟ وماذا يفعل السالك إذا لم يجد الشيخ الذى يستريح له؟

أيقف جامدا لايتحرك ويقطع ما اتصل به من العلم والعمل؟ أم ينظر فيما تركه مشايخ العلم والمعرفة، من معالم تهدى إلى الطريق، وتأخذ بيد السالك؟

إن الباحث بعمق يجد أن الصوفية الأولين يرون أن هناك طريقان للسالكين. ذكرهما ابن عجيبة فى كتابه «الفتوحات الآلهية» فقال :«هل يكتفى بمشاهدة الرسوم ومطالعة الكتب فى طريق الصوفية ـ أهل التوجيد الذوقى والمعرفة الحقيقية الوجدانية ـ أم لابد من الشيخ؟..»

وجملة الأجوبة دائرة على ثلاثة:

أولها : النظر للمشايخ، فشيخ التعليم تكفى عنه الكتب للبيب حاذق، يعرف موارد العلم، وشيخ التربية تكفى عنه الصحبة لدين عاقل ناصح.

الثانى: النظر لحال الطالب، فالبليد لابد من شيخ يربيه، واللبيب تكفى الكتب فى ترقيه ..

الثالث: النظر للمجاهدات، فمجاهدة التقوى لاتحتاج إلى شيخ لبيانها وعمومها، والاستقامة تحتاج للشيخ، فى بيان الأصلح منها: وقد يكتفى عنه اللبيب بالكتب ومجاهدة الكشف.. وهذه الطريقة قريبة من الأولى والسنة معها.

(١) الحكيم الترمذى «بدو شأن أبى عبدالله» ص ١٥، فقرة٢.

(٢) زروق «قواعد التصوف» ص ٣٩، ط مكتبة الكليات الأزهرية.

يقول ابن عجيبة بعد أن أورد الأجوبة الثلاثة: «قلت: وهذا الجواب الأخير أقرب للصواب»[1].. وقد ذكر ذلك أيضا الشيخ أبو العباس أحمد بن أحمد بن زروق فى كتابه: «قواعد التصوف» حيث بيّن فى القاعدة رقم ٦٦ قول القائلين بالاكتفاء بالكتب عن المشايخ[2].

ويبدو أن الحكيم الترمذى كان قد قطع شوطاً كبيراً لتحقيق الصفاء النفسى، والسمو الروحى، واكتساب المعرفة التى تقرب السالك من الله سبحانه وتعالى، وتفتح الطريق أمامه للترقى فى منازل القرب التى لايدنو منها إلا من تسلح بصفاء النفس، ونقاء القلب، واستقامة السلوك وشفافية الروح.

لهذا حين لم يجد من يرشده الطريق التزم بالعبادات حتى وقع فى مسامعه كلام أهل المعرفة، ووقع إليه كتاب الأنطاكى فنظر فيه، فاهتدى لشئ من رياضة النفس[3].

وقد يبدو للبعض بعد معرفة هذا عن الحكيم الترمذى أن يقول: أن الحكيم لم يكن يرى مايراه كثير من شيوخ الصوفية من ضرورة حاجة السالك إلى شيخ يأخذ بيده، ويدله على الطريق.. وإنما كان يرى أن التقديم الروحى للسالك يتوقف على مجاهداته، وصدق رياضته، ودأبه المستمر.

وقد ذكر بعض الباحثين: أن هذا الاتجاه عند الحكيم يوكده ويزيده وضوحا ماكتبه الحكيم ردا على رسالة جاءته من الرى. ناقش الحكيم فى رده «جواب كتاب من الرى» قضية من القضايا الهامة التى شغلت فكر الصوفية، ولهم فيها موقف يكادون يجمعون عليه ماعدا الحكيم - وبعض شيوخ التصوف - تلك القضية هى «كيفية الوصول إلى الله» وهل يحتاج السائر إلى الله أن يستعين بشيخ يأخذ بيده،

---

(١) ابن عجيبة «الفتوحات الآلهية» ص ٨٩، ط عالم الفكر.

(٢) ابن محمد زروق «قواعد التصوف» ص ٤٠.

(٣) الحكيم الترمذى «بدو شأن أبى عبدالله» ص ١٥.

ويدله على الطريق؟ يكاد شيوخ الصوفية يؤكدون على حاجة السالك إلى شيخ يؤدبه ويعلمه ويبصره بمراحل الطريق، يأخذ بيده إذا عثر، ويشجعه إذا تراخى.. إلا أن الحكيم الترمذى لايتابع الشيوخ على هذا الرأى، ولايتفق معهم ـ على ضرورة هذا المنهج ـ وقد بدا رأيه واضحا من رده على صاحب الرسالة[١].

وصاحب الرسالة يشكو للحكيم حاله، ويخبره أنه وصل إلى مقام لايقوم فيه بعمل إلا بعد أن يرد عليه وارد إلهى يأذن له بالعمل. ومقتضى ذلك أنه لايجوز له أن ينطلق إلى عمل بغير إذن. ومن المفهوم أن ذلك إنما يكون فى غير الفروض من الأعمال لأنها مطلوبة بمقتضى الأمر، فلا تحتاج إلى إذن جديد. أما أعمال التطوع فهى التى قامت المشكلة بشأنها.. ولكن هذا المريد أراد أن يتأكد فى حاله ومقامه، فصحب رجلا يرجو على يديه فتحا أكبر، فكانت النتيجة أن فقد ماكان فيه، ولم يجد فى شيخه الجديد تعويضا عنه[٢].. وهنا نجد الحكيم الترمذى يوجه اللوم إليه على مافعل. فما دام قد وصل إلى هذا المقام وجب عليه أن يلزمه، حتى يكون الله هو الذى يتولى تحويله عنه إلى مقام آخر.. أما أن يذهب إلى مخلوق مثله يلتمس منه المعونة على أمره، كأنه لم يرض بما أقامه الله فيه أو كان هذا المخلوق يملك له عند الله شيئا، فجزاؤه الحرمان.. فهذا المريد قد تعجل ومثل هذه الأحوال تحتاج إلى مدة حتى يستحكم أمره فيها [٣].

يقول الحكيم فى جوابه: «ووصفت أن شأنك ومبتدى أمرك أنك نلت منزلة لاتعمل شيئا إلا بإذن، ثم صحبت رجلا ممن ترجو الزيادة به، فتركت أمرك، وأقبلت عليه، فافتقدت الأمر الأول، وهكذا يكون شأن من يطلب الخالق بالمخلوق، الصادق فى الطريق يطلب ربه به لابشئ سواه، ومبتداه كما ابتديت به أن لاتعمل شيئاً إلا بأذنه

---

(١) الدكتور الجيوشى «رسائل الحكيم الترمذى» ص ٤٦، تحقيق مجلة منبر الإسلام ع٨، س ٤٠ القاهرة.
(٢) الدكتور بركة «خمس رسائل من الحكيم الترمذى» ص ٢٨٠.
(٣) الدكتور بركة «خمس رسائل من الحكيم الترمذى» ص ٢٨١.

إلا الفرض الذى قد لزم الخلق، فكان هذا منك انقيادا للعبودية وتسليما للنفس إليه، فكان سبيلك أن تدوم على هذا حتى تنظر بما يكون منه بعد هذا[1]. وبعد أن أجمل الحكيم له رأيه، أخذ يبين له الوسائل والطرق التى يرى أن الأخذ بها يوصل صاحبها إلى منزلة القرب من المولى عز وجل، يجمل هذا أولا فى قوله : «الصادق فى الطريق يطلب ربه به لا بشئ سواه» ثم يأخذ فى تفصيل هذه الوسائل وهو يرى أن مفتاح الأمر فى التوبة الصادقة مما أحدث، ثم مجاهدة النفس ورياضتها، واقرارها بالاستكانة لله والخضوع له، والتبرى من الحول والطول، والإقامة على ذلك مدة حتى تخلص النفس من شوائبها، وتصفو من كدورتها، وهذا هو الجانب الداخلى الذى لا يطلع عليه أحد وهو الجانب المهم.

ثم يرى الحكيم أن ذلك يبدأ بأن يصاحبه جانب عملى ظاهر يكون أيضا بعيدا عن الرياء، ورؤية النفس، ويتحقق ذلك بأن يتطهر المريد، ثم يصلى ركعتين فى فضاء من الأرض بعيدا عن الناس والشهرة، ثم يلزم هذا حتى يفتح له الباب[2]..

وقد ذكر الدكتور بركة - بعد دراسة وتحقيق جواب الترمذى - «اننا نستطيع أن نلمح هنا أن الحكيم الترمذى لا يتفق مع رأى الكثيرين من أئمة التصوف فى ضرورة الشيخ للمريد، وتشديدهم فى ذلك إلى حد اعتبار الشيطان شيخ من لا شيخ له. بل نجد أنه هنا يفترض عقوبة الحرمان لمن اعتمد فى سلوكه على شيخ.

لكننا من جانب آخر نرى أن ذلك قد يكون بسبب أن هذا المريد لم يحسن اختيار الشيخ الماهر بالطريق.. أو لأن هذا المريد كان قد وصل إلى مقام معين لم يعد يحتاج فيه إلى مثل هذا الشيخ، وإنما يحتاج الصبر فى انتظار ما تخرج له به رحمة الله.. على كل نجد هذا النص يفتح الباب بغير شك لمريد يسلك بغير شيخ..»[3].

---

(١) الدكتور الجيوشى «رسائل الحكيم الترمذى» تحقيق ص ٤٨ منبر الإسلام عدد ٨، والدكتور بركة تحقيق ص ٢٩٤ مجلة كلية أصول الدين العدد الأول.

(٢) الدكتور الجيوشى «رسائل الحكيم الترمذى» ص ٤٧، منبر الإسلام.

(٣) الدكتور بركة «خمس رسائل من الحكيم الترمذى» ص ٢٨٢.

ويرى الدكتور الجيوشي: أنه يحق لنا أن ندعى أن الحكيم لم يكن له شيخ معين يأخذ بيده ويسدد خطاه، وأنه انتفع بما كتبه الأنطاكى.

وقد آثر الحكيم أن يودع آراءه وأفكاره : كتبه ورسائله التى وصل إلينا منها عدد لا بأس به على الرغم من تباعد الزمن وامتداده.. وقد نقول أن الحكيم وضع أصول مدرسة تعتمد فى نقل أفكارها على ماتسجله فى الكتب والرسائل، وأن الأنطاكى كان هو الملهم الأول لطريقها فى كتابه : «دواء القلوب» وجاء الحكيم فعبد الطريق، وأوضح معالمه، وقدم له زاداً كافياً من كتبه ورسائله العديدة، أودع هذا الاتجاه فى المقربين من تلامذته، ومن أشهرهم اثنان حملا اللواء بعده، وسارا على أثره، هما : أبو بكر الوراق الذى كان يسمى معلم الأولياء، والحسن بن على الجوزجانى الذى كان يلقب بجاسوس القلوب.. وكلاهما أودع آراءه وأفكاره: كتبه ورسائله[1].

ومع كل هذا، فإن الباحث يجد البحث يقوده إلى القول : بأن الحكيم إذا كان ـ بعد عودته إلى الوطن ـ بحث عمن يسترشد به، فلم يتيسر له ذلك، حتى وقع إليه كتاب الأنطاكى فنظر فيه. ألا يجوز أن يكون بعد ذلك قد اتخذ له شيخا؟ وخاصة أنه يقر وجود الشيخ وملازمة السالك له، بدليل أنه بحث فى البلاد عنه..؟

وليس هناك مايمنع من أن يكون «جواب كتاب من الرى» الذى أعده الحكيم الترمذى ـ ردا على صاحب الرسالة الذى طلب النصح من الحكيم ـ قد جاء لأن صاحب الرسالة كان قد وصل عن طريق شيخ له إلى المقام الذى وصل إليه. ثم شاء أن يصحب رجلاً آخر يرجو الزيادة به، مما تحول الأمر معه إلى اعتقاد فى الشيخ الجديد. ولذلك تضمنت توجيهات الحكيم فى الجواب:« أن الصادق فى الطريق يطلب ربه به لابشئ سواه» وهذا من الحكيم لايتعارض مع ملازمة السالك للشيخ، لأن الشيخ يرجع إليه فيما يرد، أويراد[2].. وقد يساعد على هذا الاستنتاج المثل الذى

---

(١) الدكتور الجيوشى «مقدمة منازل العباد من العبادة» ص ١٥.

(٢) محمد زروق «قواعد التصوف» ص ٣٩.

ضربه الحكيم لهذا المريد الذى صحب رجلاً آخر يرجو الزيادة به. قال: «هو بمنزلة عبد السبى، لايعرف أمر مولاه، وقد ألقى بيده سلما، ينتظر ما يأمره مولاه، فهو ينتهى إليه، حتى إذا أتت عليه المدة بقدر مايعرف أخلاق السيد وقصده ومراده، وضرر أمره ونفعه، وصلح للتفويض إليه أعطاه رأس ماله، وفرض إليه أموره، فهو يأخذ ويعطى فى ماله، ويضع ويرفع ويسوس عبيده الذين هم دونه، ويشرف على أمور سيده، فلا يحتاج إلى إذن فى كل كلام، لأنه قد عرف أمر مولاه، واستبطنه، فصلح لتدبير أمره وسياسة عبيده، فإذا ذهب هذا العبد، وهو سبى بعد، فوضع يده فى يد سبى مثله لم يبلغ هذا المحل، ولم يصلح لتدبيره وسياسته، وهو مثله ضعيف، فقد ترك طريقه وضيع أمره»[1].

وقد تظهر تفسيرات أخرى للنص الوارد فى «جواب كتاب من الرى» إذا توفرت المعلومات الوافية المحيطة بهذه المراسلات ، واتضحت المعالم حولها، وخاصة أن بعض مؤلفات الحكيم المخطوطة لم يكشف عنها النقاب بعد. وقد ذكر الهجويرى فى كتابه «كشف المحجوب» أن للحكيم الترمذى كتابا بعنوان: «تاريخ المشايخ»[2]. ويبدو أن هذا الكتاب اعتمد عليه الهجويرى فى ترجمته للأئمة والشيوخ الأوائل[3].. وهذا الكتاب لايزال مصيره مجهولا، ولعل الوصول إليه يكشف عن معلومات ذات أهمية.. وهناك كتاب آخر لازال مفقودا وقد ذكره الحكيم فى رسالته «جواب كتاب من الرى» عنوانه: «سيرة الأولياء»[4].

وإذا كان بعض الدارسين يرى أن الحكيم أسس مدرسة صوفية تقوم على نشر

(١) الحكيم الترمذى «رسائل الحكيم الترمذى» تحقيق الدكتور الجيوشى ص٤٨، منبر الإسلام ع٨، ص٤٠.

(٢) الهجويرى «كشف المحجوب» جـ١، ص ٢٤٣ ،ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

(٣) دكتورة اسعاد «كشف المحجوب» المقدمة جـ١، ص١٤٥.

(٤) الحكيم الترمذى «جواب كتاب من الرى» ٤٧، منبر الإسلام ع٨، ص٤٠.

الكتب والرسائل، وأن المقربين إليه من تلامذته ساروا على نفس المنهج[1].. وهذا يعنى أن هذه المدرسة لاتعتمد على الشيوخ، ولاتهتم بالمريدين.. فإن كتب التراث الإسلامى أفادت أن هناك طريقة باسم «الطريقة الحكيمية» تنسب إلى أبى عبد الله ابن على الحكيم الترمذى[2] ويقول الهجويرى فى كتابه «كشف المحجوب» تحت عنوان «الحكيمية»: «أما الحكيميون فينتمون إلى الحكيم الترمذى»[3].. وهذا يوضح للباحث أن الحكيم كان شيخ طريقة، وللطريقة مريدون، ويقال للمريدين: «الحكيميون» ويضاف إلى كل هذا أن كتب الطبقات وتراجم الرجال أفادت أن مريدى الحكيم الترمذى، أصبحوا شيوخا، لهم مريدون[4].

وقد وجدنا فى رسالة للحكيم الترمذى، يجيب فيها عن أحد الأسئلة الواردة إليه عن كيفية السلوك. فيقول :«لاتدخل خلوتك حتى تعرف أين مقامك وقوتك من سلطان الوهم، فإن كان الوهم حاكما عليك فلا سبيل إلى الخلوة إلا على شيخ، مميز، عارف»[5]..

ولا شك أن كلام الحكيم الترمذى فى هذه القضية يعد عند الباحثين وأهل المعرفة دليلا على اتخاذ الشيخ حيث كان الناس يفهمون أن مدرسة الحكيم تعتمد على بث أفكارها عن طريق الرسائل ونشر المعرفة، دون الاهتمام بالشيوخ فى تربية المريدين فجاءت هذه الرسالة من الحكيم لتضعنا أمام حقائق مفيدة فى الطريق.

---

(١) الدكتور الجيوشى «مقدمة منازل العباد» ص١٥.

(٢) الهجويرى «كشف المحجوب» جـ١، ص١٣٦.

(٣) الهجويرى «كشف المحجوب»جـ٢، ص٤٤٢.

(٤) الهجويرى «كشف المحجوب» جـ١، ص٣٥٤، ٣٥٩.

(٥) الحكيم الترمذى «كيفية السلوك» مخطوط ورقة رقم ١٤٧، مجموع ٣٥٣، خزانة تطوان «شمال المغرب»..

المبحث الرابع

مجاهدات الحكيم وسلوكه

أن كمالات الله تعالى لاتتناهى، وعظمته لاتطاول، وعطاءه للخلق لايتوقف ولاينقطع ورحمته بهم وسعت كل شئ..

ولقد جاءت رسالة الله تعالى إلى خلقه، ونزل وحيه إلى عباده، وفيه من كماله وعظمته ورحمته، مايطبهم، ويصلح شأنهم، ويرتقى بهم إلى مافيه خيرهم.. الأمر الذى يؤدى فطريا إلى أن تتحرك نفس الإنسان من خمود، وأن تستيقظ من سبات، وأن تختلط فيها بواعث الرغبة بعوامل الرهبة، وأن تمتزج فيها دوافع الخوف وموجبات الرجاء.. ولاتلبث النفس متى تحركت هذه الحركة الصادقة، ونهضت فيها هذه النوازع الإيجابية إلا أن تحبس جهدها على الحق، وتوقف طاقاتها على الخير، وتجند إمكاناتها للطاعة، وتألف طريقها إلى المعروف. ومع تساوى المسلمين فى العقيدة، وإقامة الفرائض، فإنهم يتفاضلون حسب استعدادهم وجهادهم فى تزكية أرواحهم، وتحليتها بالفضائل، وعلو الهمة فى طلب الله، ومحبته تعالى وإثاره على ما سواه.

قال تعالى: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾[1]..

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[2].

---

(١) سورة الأحزاب، الآية رقم ٢٣.

(٢) سورة فاطر، الآية رقم ٣٢.

والحكيم الترمذى قد نشأ فى بيت علم، والنشأة العلمية التى نشئها الحكيم كانت امتدادا لجهود أبيه من قبله، فأبوه على بن الحسن بن هارون الترمذى المحدث الذى حدث ببغداد .. ولاشك أن نشأة الحكيم كانت ذات تأثير عليه فى الإقبال على الدراسة وتفرغه لها، والاهتمام بها دون غيرها منذ حداثته[١]..

ولقد ظل الحكيم منذ نعومة أظفاره يدرس علم الآثار وعلمى الرأى، وهذان العلمان من أسنى العلوم التى كانت تطلب فى عصره، بحيث يكفى الواحد منهما لنسبة صاحبه إلى سؤدد العلم وشرفه.. ويستحسن أن لانغفل عن أن هناك أثرا صادف لدى الحكيم الترمذى استعدادا. فظل ينمو وينمو حتى ظهر أخيراً فى تحوله الصوفى، هذا الأثر هو ما لاحظه الترمذى نفسه فى تفريقه بين أهل الرأى وأهل الحديث، من حيث الأخلاق والسلوك[٢].. يقول فى «المسائل المكنونة» تحت عنوان« أصحاب الفقه وأهل الحديث»: «وأهل الحديث كثر تردد هذه الأخبار على أسماعهم فخلصت إلى النفوس منهم. شاءت أو أبت، فذللتها وقمعتها، وإن لم يتصدوا لها ،فرئى أثر ذلك وبركته عليهم»[٣]..

«فلين القلب، ورقة الفؤاد، وخشوع النفس، وخضوع الجوارح، من المميزات التى امتاز بها أهل الحديث على وجه العموم، وهى فى نفس الوقت من الاستعدادات التى تهيئ المرء للسلوك السليم، وقد كان أبوه من المحدثين، فلا غرو أن تنطبع هذه الصفات فى نفس ولده فتؤثر فيه وتجعله بدوره على استعداد كاف للسلوك السوى عندما تظهر دواعيه، وتتهيأ أسبابه.

«ولم يكن الحكيم ممن تكفيه دراسة علم الرأى وعلم الآثار. بل لعله كان لايجد فيهما الذى كان يتشوق إليه بشوق غالب، ونفس طلعة، لاتهدأ ولا تستقر، وظل

---

(١) انظر الدكتور بركة«الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية» جـ١، ص ١٨٢.

(٢) انظر الدكتور بركة «الحكيم الترمذى وتطوره فى الولاية» جـ١، ص ١٨٢ بتقديم وتأخير فى العبارة.

(٣) الترمذى «المسائل المكنونة» ص٤٨ بتحقيق الدكتور الجيوشى، ط دار التراث.

شعوره بهذا النقص كامنًا فى أعماق نفسه، يوجهه من حيث لايدرى فى وجهة أخرى، لم يكن يفكر فيها، ولايلتفت إليها، بل كان مايتميز به كل منهما عن الآخر عاملا من عوامل الصراع الخفى فى نفس الحكيم الترمذى، ولم يجد هذا الشعور وسيلة إلى الظهور والتعبير عن نفسه إلا بعد أن بلغ الشيخ السابعة والعشرين من عمره، وألقى عليه حرص الخروج إلى بيت الله الحرام»[١].

فأخذ أهبته للحج، وتابع رحلته إلى مكة، وقضى هناك فترة فى رحاب الكعبة، مجاورا يدعو الله، ويتضرع إليه ويناجيه. وقد وصف لنا تلك اللحظات الحاسمة فى رسالته «بدوشأن أبى عبدالله» فقال: «فقدمت مكة فى بقية شعبان رزقنى الله المقام بها إلى وقت الحج، وفتح لى باب الدعاء عند الملتزم، فى كل ليلة سحرا، ووقع على قلبى تصحيح التوبة، والخروج مما دق وجل، وحججت، فرجعت وقد أصبت قلبى، وسألته عند الملتزم فى تلك الأوقات أن يصلحنى، ويزهدنى فى الدنيا، ويرزقنى حفظ كتابه، وكنت لا أهتدى لشئ من الحاجات غير هذا، فرجعت وقد ألقى على حرص التحفظ للقرآن فى طريقى، فأخذت صدرا منه فى الطريق، فلما وصلت إلى الوطن يسر الله على ذلك بمنه، حتى فرغت منه، فأقامنى ذلك بالليل فكنت لا أمل من قراءته حتى أنه كان ليقيمنى ذلك إلى الصباح ووجدت حلاوته»[٢].

ومن هذا النص يكشف الحكيم الترمذى عن المرحلة الثانية من مراحل مجهوداته وسلوكه، فقد أتقن فى المرحلة الأولى علم الفقه والحديث، واستكمل مايحتاج إليه من الأخذ عن المحدثين فى ترمذ والعراق والبصرة والكوفة.

ويبدو أن رحلة الحج هذه كانت بمثابة نقطة تحول فى حياة الحكيم الفكرية والروحية. حيث بدأ مرحلة الرياضة والمجاهدة والسعى الدائب إلى مايقربه إلى الله،

(١) الدكتور بركة «الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية» ص ١٨٢.
(٢) الترمذى «بدوشأن أبى عبدالله» ص ١٤.

ويدنيه من رضاه.. لأنه وجد فى رحاب البيت الحرام متسعًا من الوقت، وصفواً من الزمن، يعود فيه إلى نفسه ليكننه أسرارها، ويسبر أغوارها، فتنفست انفعالات كانت تعتلج فى نفسه وبرزت من أعماقه أحاسيس، ملكت عليه الشعور، فاهتدى أول ما اهتدى إلى الدعاء.

والدعاء هو مخ العبادة، وله منزلة كبيرة عند الله، لأنه الحبل الذى يتعلق به الإنسان ليصله بربه، ويكون دليل القرب منه جل شأنه، ومنزلة الدعاء من العبادة كمنزلة الرأس من الجسد، فهو دعامة أساسية فى العبادة، والدعاء تعبير طبيعى عن إحساس نفسى وشعور حى لدى الإنسان الذى يدرك وجود حقيقتين فى حياته: «الله والإنسان» ويدرك النسبة الحقيقية بين الوجودين: وجود الله الذى هو مصدر الغنى والكمال والإفاضة فى هذا العالم، ووجود الإنسان الذى هو وعاء الفقر والحاجة والمسكنة، المتقوم بالإفاضة، والعطاء المستمر..

والحكيم الترمذى بعد أن فتح له باب الدعاء، وقع على قلبه «تصحيح التوبة»، وتلك مرحلة من مراحل المجاهدات رأى الحكيم أنه لابد منها كى يخلص لله. لأن التوبة سبيل مهيئ لإصلاح الفرد، وتشد الإنسان إلى الصلاح شدا، وتبعث فيه دائماً أمل الاستقامة، وتؤهله للخير والفضيلة.

وبعد فتح باب الدعاء، وتصحيح التوبة، وجد الترمذى نفسه يتجه نحو التنسك والسير فى طريقه، بعدما حصّل القسط الوافى من ألوان العلوم والمعارف الأخرى وقد ألقى بثقله إلى حفظ القرآن الكريم وهو فى طريق عودته، وتم له حفظه جميعه بعد وصوله إلى وطنه «ترمذ» وأخذ القرآن من إحساسه وقلبه ووجدانه كل مأخذ، حتى كان يقطع الليل كله يتلوه إلى مطلع الفجر، وحتى وجد فى قلبه حلاوته، وانشرح صدره لنوره»[1].

---

(١) راجع الدكتور الجيوشى مقدمة «المسائل المكنونة» للترمذى ص١٢.

لقد تغير إذن مركز الاهتمام، وانتقل انتقالا كليا، فلم يعد تهمه المعرفة العقلية لأنه قد حصّل منها ماكان كافيا لمثله، ولكن الذى أصبح يهمه الآن ماهو مستكن وراء هذه المعرفة مما لايدرك إلا بالذوق، ومما يشبع كلتا العاطفتين: عاطفته الجياشة نحو الله، ونحو معرفته، لذلك أخذ فى تتبع محامد الرب تبارك اسمه[1]. ويقول الحكيم فى ذلك: «فأخذت أتتبع من الكتب محامد الرب، تبارك اسمه، والتقاط محاسن الكلام، من طريق العظات، ومما يستعان به على أمر الآخرة»[2].

لكن هذه النقلة ـ التى لم يكن الترمذى يستعد لها ـ جعلته يحس بما يشبه الحيرة، فقد انقطع فى هذا الطور الجديد عن مألوفه، واتجه اتجاها لامعرفة له به وترك غاية كانت واضحة بينة، إلى غاية لم يتضح له شئ منها بعد، فهو ينظر ليرى ماأمامه فلا يدركه، ولايعرف كيف يتوافق معه[3].

ولم تصرفه هذه الحيرة عما هو فيه، بل زادته تشبثا واستمساكا، لأن عمق الحب الذى جعله يندفع إلى تتبع محامد الرب، ظل كما هو مسيطرا عليه، يدفعه إلى الثبات والتغلب على هذه الحيرة التى وقع فيها، حتى أصبح كالمسير المستسلم لما يراد له، دون أن يعرف ماذا يراد له. ولم يكن له ملجأ حينئذ إلا الإقبال على نواحى العبادة من الصوم والصلاة[4]. ومن كلام الحكيم قوله: «واسترشد فى البلاد فلا أجد من يرشدنى الطريق، أو يعظنى بشئ أتقوى به، وأنا كالمتحير لا أدرى أى شئ يراد لى إلا أنى أخذت فى الصوم والصلاة»[5].

يقول الدكتور بركة: لكن الحال ظل هو الحال، لأنه لم يكن قد عرف من قبل غير ماكان يدرسه فى علم الآثار والرأى. وهو ذو منهج يختلف عن المنهج الذى ينبغى

---

(١) انظر الدكتور بركة «الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية» جـ١، ص١٨٦.

(٢) الحكيم الترمذى «بدوشأن أبى عبدالله» ص١٥، من كتاب ختم الأولياء.

(٣) انظر الدكتور بركة «الحكيم الترمذى» جـ١، ص١٨٦.

(٤) المصدر السابق ص١٨٦.

(٥) الحكيم الترمذى «بدوشأن أبى عبدالله» ص١٥... ط بيروت.

اتباعه فى مثل حاله الجديدة، ولم يكن لديه من معرفته شئ، فأقبل عليه ولم يعرف منهجه أو أسلوبه أو طريقته بعد[1].

ولا شك أن حيرة الحكيم، قاسى منها الكثير، وكان لايعرف إلى أى اتجاه يسير، ولقد حدث مثل ذلك للغزالى حيث لم يزل يتردد بين تجاذب شهوات الدنيا، ودواعى الآخرة، قريباً من ستة أشهر، وانتهى الأمر فى هذا التجاذب بأن اعتقل لسانه، وغمر قلبه حزن أثر على صحته فالتجأ إلى الله الذى يجيب المضطر الذى لاحيلة له، فأجابه الله الذى يجيب المضطر إذا دعاه، وسهل على قلبه الإعراض عن الجاه والمال والأولاد والأصحاب..[2].

فالترمذى مر بفترة قلقة أشبه ماتكون بالحيرة التى تنتاب السالك فى محاولاته اكتشاف النفس، أو الاطمئنان إلى طريق الهدى، فهام على وجهه يبحث عن مرشد أو واعظ يأخذ بيده، فلا يجد من يوجه طريقه، ويسدد خطاه. ويبدو أن الخوف والقلق قد اشتد به خلال هذه الفترة الحرجة، ولم يجد خيرا من الصلاة والصوم.. ولم يزل الحكيم على تلك الحال حتى اهتدى إلى سماع أقوال العارفين وأهل المعرفة، وأثناء بحثه عن معين على الطريق وقع فى يديه كتاب «الأنطاكى». ويبدو أنه يقصد كتاب «دواء القلوب» لأحمد بن عاصم الأنطاكى، فقد أقبل على قراءته، واهتدى بواسطته إلى طريق رياضة النفس[3].

واستقبل بذلك مرحلة من مراحل رياضة النفس التى بدأ فيها تجاربه الروحية الأولى وأخذ فيها يلمس آثار هذه الرياضة ونتائجها فيما يشعر به من تقدمه الروحى، فشجعه ذلك، وأخذ يضع لنفسه منهجًا صارمًا دفعه إلى المضى فيه قدمًا ماآنسه من صفاء قلبه، وشفافية فى روحه.[4].

---

(١) الدكتور بركة «الحكيم الترمذى» جـ ١، ص١٨٧.

(٢) الدكتور عبدالحليم محمود «المنقذ من الضلال» ص٣٥، ط دار الكتاب اللبنانى..

(٣) الدكتور الجيوشى «مقدمة المسائل المكنونة» ص ١٢، ١٣.

(٤) الدكتور الجيوشى «مقدمة منازل العباد» ص ١٣.

ويصف الحكيم هذه التجارب وآثارها فيقول:«فلم أزل كذلك حتى وقع فى مسامعى كلام أهل المعرفة، ووقع إلى كتاب الأنطاكى فنظرت فيه، فاهتديت لشئ من رياضة النفس، فأخذت فيها، فأعاننى الله، وألهمت منع الشهوات نفسى، حتى صرت كأنى أعلم على قلبى الشئ بعد الشئ، حتى ربما كنت أمنع نفسى الماء البارد، وأتورع عن شرب ماء الأنهار، فأقول: لعل هذا الماء جرى فى موضع بغير حق، فكنت أشرب من البير أو من الوادى الكبير»[1].

تجارب روحية يمضى فيها الحكيم الترمذى، ذات منهج صارم، حتى كان يمتنع عن شرب الماء البارد ليكون بعيدا عن رفاهية النفس، ويتورع عن شرب ماء الأنهار خشية أن يكون قد جرى فى موضع بغير حق.

«ولاشك أن هذه المغالاة إنما كانت تحدث من الحكيم فى أوقات استغراقه، ووقوعه تحت سيطرة العاطفة الغلابة، التى تقهره على التورع والمبالغة فيه، لكى يتحقق منه وله، ماكان طلبه أثناء إقامته بمكة»(٢).

ويذكر الحكيم فى كتابه «بدو شأن أبى عبدالله» مايمكن أن نعتبره مرحلة أخرى متقدمة فى مرحلة المجاهدات والسلوك، فيقول: «ووقع على حب الخلوة فى المنزل، والخروج إلى الصحراء، فكنت أطوف فى تلك الخربات والنواويس[3] حول الكورة، فلم يزل ذلك دأبى، وطلبت أصحاب صدق يعينونى على ذلك ، فعز على، فاعتصمت بهذه الخربات والخلوات»[4].

---

(١) الحكيم الترمذى «بدو شأن أبى عبدالله» ص١٦.

(٢) راجع الدكتور بركة «الحكيم الترمذى» ص جـ ١ ، ص ١٨٨.

(٣) النواويس مفردها ناووس. ولها معنيان : ١ ـ متاع على هيئة صندوق من حجر أو خشب أو معدن يوضع فيه الموتى. ٢ ـ الخلاء أو المكان الذى توجد فيه مقابر الأموات. والمعنى الثانى هو المراد فى هذا الموطن «ختم الولاية» ص ١٥ ـ ١٦ الدكتور عثمان يحيى.

(٤) الترمذى «بدو شأن أبى عبدالله» ص١٦.

وقد بدا الترمذى فى هذه المرحلة ملتزما بالعزلة والخلوات، فقد كان يخلو بمنزلة مرة، أو يخرج إلى الصحراء أخرى، أويطوف بالخربات ومقابر الأموات ثالثة.. وإذا كانت هذه العزلة والخلوة قد حببت إليه وأصبحت من مظاهر رياضته النفسية، فإنه لم يمتنع امتناعا كليا عن الاختلاط بالأصحاب إلا لفقدانه منهم أصحاب الصدق الذين يعينونه على ما هو فيه، وذلك لأنه قد أصبح مركز الحس والوجدان على هذا الاتجاه، بحيث لايمكن أن يلتفت إلى غيره، وكل مايشغله أو يصرف انتباهه عنه، أو يقطع استغراقه فيه يصبح كريها ثقيلا غير محتمل. وفى مثل هذه الحال لايمكن له أن يختلط إلا بمن يكون له نفس الاتجاه، المشتغل بنفس مايشغله، حتى يجد فيه عونا على طريقه، فإذا لم يجد كان النفور من الناس والاختلاط بهم شعوراً طبيعياً، وكان اللجوء إلى العزلة والخلوة إجراءً طبيعياً أيضا، يعتصم بهما عما يقطع عليه سعيه وجده واجتهاده[1].

ويذكر الدكتور بركة أن الحكيم قد بيِّن هذا المعنى فى رسالته التى كتبها إلى محمد بن الفضل البلخى، حيث جاء فيها : «وأما ماذكرت من شأن الاستخفاف بالأخوان، وسقوط من فعل ذلك عن الله تعالى، فأين ذلك الأخ؟ أنا فى طلبه عطشان، ومكانه منى على العاتقين، وأشفار العينين.

وإنما يكون أخوك من سقياهما من مشرب واحد، ومرعاهما فى مرتع واحد، ومركبهما واحد، من حظ واحد ، إلى رب واحد.

فأما من تباينا فى هذه الصفات فلا يأتلفان إلا على التداوى والتعايش. وأخوان المداراة والمعايشة كانوا فى السلف الصالح الذين خلوا يتعايشون ويتأخذون على سلامة الصدور، وسخاوة الأنفس.

فأما اليوم فقد تبدل بالسلامة خبا ودهاء، وبسخاوة الأنفس طمعا وبخلا، فرد السلام على مثل هؤلاء ومناولة اليد، والكشر فى وجوههم كثير كثير والاشتغال بهم بطالة.

---

(١) الدكتور بركة «الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية» جـ ١، ص ١٨٩.

إنما يقتضيك الله من أمورهم أن ترحمهم رحمة يسلموا منك قلبًا ويداً ولسانًا وفعلاً[1].

فالمسألة ليست استخفافا بالإخوان، ولا استكباراً على الناس.. وإنما هى مسألة مشارب تتفق، واتجاهات تأتلف، فإذا اتفقت المشارب أمكن الاجتماع، وإذا اختلفت صعب الاجتماع إلا على أساس من التعايش والمداراة.

وقد كان يمكن ذلك لو كان الناس على ماكان عليه السلف من سلامة الصدر، وسخاوة النفوس. أما وقد فسدت النفوس وضاقت الصدور، فقد أصبح الاجتماع على التعايش والمداراة أمراً صعبًا كذلك. وإذا اشتغل الإنسان بذلك أضاع وقته وجهده وحاله مع الله. وإنما يكفيه فى ذلك مايكون بينه وبين الله فى شأنهم، وهو أن ينظر إليهم نظرة رحمة بحيث لاينالهم منه أذى لا بالفعل ، ولا بالقول ولا بالضمير[2].

على أنه ينبغى أن لانأخذ هذا العكوف على الخلوة والعزلة من مظهرها الخارجى فحسب ونصفها بالسلبية المطلقة، لأنه فى الوقت الذى يبدو فيه هادئا بعيدا عن كل نشاط ظاهر، عقلى أو ذهنى أو حتى عضلى، يكون نشاطه الباطنى فى أشد درجاته فاعلية وإيجابية بحيث تكون له السيطرة الكاملة على كل ملكاته، بل وعلى حواسه.. فهو يوقف نشاطه الظاهرى ليعطى المجال لنشاطه الباطنى، ومايزال مستغرقا فى تجربته إلى أن تتمكن عاطفته من السيطرة على مشاعره الظاهرة، وتنفتح عين بصيرته، فتجلو له من شئونه ما لم يكن يراه بعين بصره، وتنشط هذه الحاسة التى يسميها بعض الباحثين «الحاسة الكونية» للاتجاه به إلى خالقها، وتنطلق إرادته الروحية قوية ثابتة لتسلك به طريق الصفاء الروحى، ويكون حينئذ قد بدأ

---

(١) الترمذى «خمس رسائل من الحكيم الترمذى» تحقيق الدكتور بركة مجلة كلية أصول الدين بالقاهرة عدد سنة ١٤٠١ هـ، ص ٣٠٥، ٣٠٦.

(٢) راجع الدكتور بركة «مقدمة خمس رسائل من الحكيم الترمذى» ص ٢٨٧- ٢٨٨ مجلة كلية أصول الدين.

يسير فى طريقه نحو إشباع هذه العاطفة الإنسانية الكمينة المتجهة بأشواقها الغلابة نحو الله، ونحو معرفته[1].

ولا يمكن إذن أن يدعى على مثل هذه العزلة أنها عمل من أعمال البطالة، مغلفة تحت غلاف دينى، لأنها ـ على النقيض من ذلك تماما ـ أشق معاناة، وأصعب مراسا من الأعمال الأخرى التى يستعان عليها بالاندماج بين الجماعات من أخوة الدين. وقد أدرك الحكيم ذلك، ولم يجد من يعينه على حاله، فاعتصم بالخربات والخلوات، يعانى فيها وحيدا جهده الصامت العنيف[2]..

ولقد ذكر الغزالى : أنه آثر العزلة، حرصا على الخلوة، وتصفية القلب للذكر، وكان فى أثناء هذه الخلوات تنكشف له أمور لايمكن إحصاؤها واستقصاؤها[3].

وذكر الغزالى فى كتابه «المنقذ من الضلال»: أنه من أول الطريقة تبتدئ المكاشفات والمشاهدات. حتى أنهم فى يقظتهم يشاهدون الملائكة، وأرواح الأنبياء، ويسمعون منهم أصواتا، ويقتبسون منهم فوائد.. ثم يترقى الحال من مشاهد الصور والأمثال إلى درجات يضيق عنها نطاق النطق»[4].

والحكيم الترمذى فى مواضع من رسائله يذكر أن المكاشفات والمشاهدات هى بمثابة محلات للراحة، يستجم فيها السالك، ويستروح من شدة مايعانيه، ويتزود لاستئناف سيره[5].

والمكاشفات : مكاشفات العيون بالأبصار، ومكاشفات القلوب بالاتصال،

---

(١) راجع الدكتور بركة «الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية» جـ ١، ص ١٨٩.

(٢) المصدر السابق ص ١٩٠.

(٣) الغزالى «المنقذ من الضلال» ص١٢٦، تحقيق الدكتور عبدالحليم محمود، ط دار الكتاب اللبنانى.

(٤) الغزالى «المصدر السابق» ص ١٢٧.

(٥) الدكتور بركة «الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية» جـ ١، ص ١٩٠.

والمكاشفة: حضور القلب بنعت البيان، فيكشف له مايستتر على الفهم[١].. فالقلب قد أيقن أن مايتكشف له هو الحق، وأنه واضح له بلا افتقار إلى بيان أو تأمل أو برهان[٢].

أما المشاهدات فهى الدرجة العليا، وهى رؤية الحق ببصر القلب من غير شبهة كأنه رآه بالعين.. وأهل المشاهدة على ثلاثة أحوال. فالأول منها : الأصاغر، وهم المريدون. يشاهدون الأشياء بعين العبر، ويشاهدونها بأعين الفكر. والثانى: الأوساط. وهؤلاء قال فيهم الخزاز: الخلق فى قبضة الحق وفى ملكه، فإذا وقعت المشاهدة فيما بين الله وبين العبد لايبقى فى سره ولا فى همه غير الله تعالى .. والثالث: ما أشار إليه عمرو بن عثمان المكى: أن قلوب العارفين شاهدت الله مشاهدة تثبيت، فشاهدوه بكل شئ، وشاهدوا كل الكائنات به، فكانت مشاهدتهم لديه، ولهم، وبه[٣].

ومن هذه المكاشفات والمشاهدات ماقصه الحكيم فى «بدو شأن أبى عبدالله» من الرؤى، فقد ذكر رؤيتين اثنتين رآهما الحكيم بنفسه فيما يرى النائم، وماعدا ذلك من الرؤى التى قصها علينا فقد رأتها له زوجه، أو رآها له آخرون، وهو يذكر هذه الرؤى، ويعول عليها جميعًا بنفس الدرجة التى يعول بها على رؤياه الشخصية[٤].

أما الرؤيتان اللتان رآهما بنفســه، فالأولى منهما تشير إلى درجة صلته بالرســول ﷺ. والثانية تشير إلى علاقته بربه.. وجاء فى الأولى قوله : «فبينما أنا على هذه الحال، إذ رأيت فيما يرى النائم كأنى أرى الرسول الله ﷺ دخل المسجد الجامع فى كورتنا، فأدخل على أثره، فألزم اقتفاء أثره. فما زال يمشى حتى دخل

---

(١) الدكتور عبدالمنعم حفنى «معجم مصطلحات الصوفية » ص ٢٤٩، ط دار المسيرة ببيروت.

(٢) الدكتور محمد حسن الشرقاوى «ألفاظ الصوفية ومعانيها» ص ٢٨٠، ط دار المعرفة بالاسكندرية.

(٣) الدكتور عبدالمنعم حفنى «معجم مصطلحات الصوفية» ص ٢٤٤، ط ، دار المسيرة ببيروت.

(٤) راجع الدكتور بركة «الحكيم الترمذى» جـ ١، ص ١٩٠.

المقصورة وأنا على أثره، ومن القرب منه، حتى كنت أكاد التزق بظهره، وأضع خطاى على ذلك الموضع الذى يخطو عليه حتى دخلت المقصورة، فرقى المنبر، فرقيت على أثره، كلما رقى درجة رقيت على أثره، حتى إذا استوى على أعلى درجة قعد عليها، فقعدت عند الدرجة الثانية من مجلسه، عند قدميه، ويمينى إلى وجهه، ووجهى إلى الأبواب التى تلى السوق، وشمالى إلى الناس، فانتبهت من منامى وأنا على تلك الحال» [1].

وجاء فى الرؤية الثانية قوله : «ثم من بعد ذلك بمدة يسيرة، بينما أنا ذات ليلة أصلى، فثقلت، فوضعت رأسى فى مصلاى، جنب فراشى، إذ رأيت صحراء عظيمة لا أدرى أى مكان هو، فأرى مجلسا عظيما، وصدرا مهيئا لذلك المجلس، وحجلة مضروبة، لا أقدر على صفة تلك الثياب، وذلك الستر، فكأنه يقال لى : أنه يذهب بك إلى ربك، فأدخل تلك الحجب. فلا أرى شخصا، ولا صورة . إلا أنه وقع فى قلبى أنى لما دخلت وقع على الفزع فى ذلك الحجاب، فأيقنت فى منامى بالوقوف بين يديه، فما لبثت أن رأيت نفس خارجا من الحجب، بالقرب من باب الحجاب، واقفا وأنا أقول: عفا عنى، وأجد نفسى قد سكن من الفزع»[2].

ولا شك أن وقائع الرؤيا التى قصها علينا الحكيم الترمذى، كانت بمثابة بشرى له تدخل الأمن إلى قلبه، وتشيع فيه الطمأنينة، لأنه فى طريقه يقفو خطى رسول الله ﷺ. ومادام الأمر كذلك فلا خوف عليه من إنكار الناس ولومهم.

ولايخفى أن هذه الرؤى فى حياة الحكيم كانت علامة ظاهرة على عمق التجربة الروحية وصدق صاحبها. ومن شأن هذه الرؤى أن تزيد صاحبها ثباتا وقوة على المضى فى الطريق فهى ذات تأثير مزدوج فى نفس السالك من حيث أنها تترجم له

---

(١) الحكيم الترمذى «بدو شأن أبى عبدالله» ص ١٦، الفقرة٣، «ختم الأولياء» ط بيروت.

(٢) المصدر السابق ص ١٦ ، ١٧ الفقرة الرابعة.

عن الحقيقة، أو عما يجده فى أعماق نفسه بصورة صريحة أو بصورة رمزية، تبث فى نفسه الثقة بما حصل فى يده، أو بما وصل إليه، وتوحى إليه بما ينبغى أن يبذله من جهد أكبر، وبالمعالم التى ينبغى له أن يتبعها. ومما لاشك فيه أن هاتين الرؤيتين بذاتهما، ثم بمضمونهما، كانتا ذواتى تأثير كبير على الحكيم فى سلوكه طريقه، وفى مضيه قدما فى هذا الطريق[١]. واستمر الحكيم فى الطريق يأخذ نفسه بالرياضة والمجاهدة، ويؤثر العزلة والبعد عن الناس ولجأ إلى النجوى والدعاء، حتى أنس من نفسه قوة، واتضحت أمامه المعالم[٢]. ويقول فى هذا : «فدام لى شأن رياضة النفس، من تجنب الشهوات، وقعود فى البيت، على عزلة من الخلق، وطول نجوى من الدعاء، فانفتح لى شئ بعد شئ، ووجدت فى قلبى قوة وانتباها»[٣].

وحين وجد القوة والانتباه، ووضوح معالم الطريق، وسلامة السلوك، بحث عن أخوان يعاونونه الطريق، واتخذ لهم مجلسا يجتمعون فيه للتذاكر والمناظرة والدعاء والتضرع فى وقت الأسحار، ويقول فى ذلك:«وطلبت من يعيننى فكان يكون لنا اجتماع بالليالى، نتناظر ونتذاكر وندعو ونتضرع بالأسحار»[٤].

وكان طبيعيا أن يخوض الحكيم ومن معه فى أمور القلب، والذوق، والوجدان، ويتخلل حديثهم إشراقات وإشارات لايفهمها إلا ذوى الأذواق الخاصة، والمواجيد، ولاشك أن جانبا من هذه المذاكرات، والإشراقات، والإشارات، كان يتحدث بها بعض رواد المجلس فى الخارج، ويتناقلون مايدور بينهم، وينقلون عن الحكيم مايقولون.. ولم تنل هذه اللمحات الروحية القائمة على الذوق والرياضة رضا بعض الشيوخ الذين كانوا ينهجون فى فهم الدين وأوامره منهجا آخر يدور فى فلك الألفاظ وفهمها الظاهر[٥].

(١) راجع الدكتور بركة «الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية» جـ ١، ص ١٩١.
(٢) راجع الدكتور الجيوشى «مقدمة منازل العباد من العبادة» ص ١٥.
(٣) الترمذى «بدو شأن أبى عبدالله» ص ١٧.
(٤) الترمذى «بدو شأن أبى عبدالله» ص ١٧.
(٥) راجع الدكتور الجيوشى «منازل العباد من العبادة» ص ١٦.

ويبدو أن هذه المجالس كانت تحفل بكثير من إشارات الصوفية، ولمحات العارفين فى أمور لم يألف الناس الخوض فيها أو تناولها على هذا النحو الذى يطلق فيه العنان لإشراق النفس، ونور القلب، فيلهم أهله فهما فى آية من كتاب الله، أو شرحا لحديث من أحاديث رسوله الكريم، أو تعليلا لأمر من الأمور التى كانت مجالا يخوض فيه الناس فى ذلك الوقت، وكانت مثار أخذ ورد بين العلماء الباحثين، وقد اختلفت نظرتهم إليها وحكمهم عليها، تبعا لاختلاف المنزع والمنهج والقدرة على الاستنتاج والحرية فيه، أو تبعا لارتباط الباحث بمنهج معين، والسير على منوال خاص لايحاد عنه فى تفسير الأمور وتعليلها[1].

وقد كان من نتائج هذا الاختلاف أن سعى الواشون بالحكيم ورأوا أن مايذكر فى مجالسه يعد انحرافا. لذا بدأوا يكيدون له.. ويصور ذلك الحكيم الترمذى فيقول: «فأصابنى غموم من طريق البهتان والسعايات وحمل ذلك على غير محمله، وكثرت القالة، وهان ذلك كله على، وسلط علىّ أشباه ممن ينتحلون العلم يؤذوننى ويرموننى بالهوى والبدعة وأنا فى طريقى ليلا ونهارا، دؤوبا دؤوبا »[2].

وقد يكون هذا الذى حدث اختبار لمدى الصدق فى السلوك، والثبات فى الطريق، فإن الصادقين المخلصين لايأبهون لما يلاقونه من أنواع الفتن والبلايا، ولاقصدهم عن الحقائق التى تكشفت لهم، افتراءات المفترين.. ولهذا لم يهتم الحكيم بهؤلاء.. بل ظل على حاله مستغرقا فى الطريق، لايتوقف ولايهدأ ولايستريح، والفتنة تزداد، والشائعات تنتشر. ويبدو أن موقف الحكيم السلبى، وعدم تصديه للرد عليها، جعل الفتن تقوى وتعنف، حتى وصل الأمر إلى والى بلخ، فأرسل محققا يبحث له هذا الأمر، وقدأتهم الحكيم لديه بأنه يتكلم فى الحب، ويفسد الناس، ويبتدع، ويدعى النبوة، وأقل هذه التهم - وهى تهمة الكلام فى الحب - كان كافيا لتبرير أقسى

---

(١) راجع الدكتور الجيوشى «الحكيم الترمذى دراسة لآثاره وأفكاره» ص ٢٢ ، ٢٣..

(٢) الحكيم الترمذى « بدو شأن أبى عبدالله» ص ١٧، تحقيق الدكتور عثمان يحيى.

العقوبات، ولعله بناء على ذلك قد أخرج إلى «بلخ» أو لعل والى «بلخ» طلبه إليه وهناك كتب عليه قباله أن لا يتكلم فى الحب»[١].

ويصور الحكيم هذه المحنة فيقول: «حتى اشتد البلاء، وسار الأمر إلى أن سعى بى إلى والى «بلخ»[٢] وورد البلاد من عنده من يبحث عن هذا الأمر، ورفع إليه أن هاهنا من يتكلم فى الحب، ويفسد الناس، ويبتدع، ويدعى النبوة، وتقولوا على مالم يخطر ببالى قط، حتى صرت إلى «بلخ» وكتب على قباله أن لا أتكلم فى الحب»[٣].

واشتدت الحياة على الحكيم الترمذى، وأذته كثيرا هذه الاتهامات الباطلة، التى ألصقها به منتحلو العلم زورا وبهتانا، ولم يكن له بد من أن يتوارى عن الناس»[٤].

وهكذا تحددت إقامته فى منزله، وشوه أعداءه سمعته عند العامة حتى بلغ الأمر به أنه كان يرى السلامة فى البقاء بالمنزل، حتى لا يتعرض له أحد بسوء[٥].

ولا يخفى على أهل العلم من أن هذه المحنة التى تسبب فيها حساد الحكيم ومنافسوه، كان لها وقع مؤلم، دفع بالحكيم ألا يستطيع أن يطل برأسه، ولا يجترئ

---

(١) الدكتور بركة «الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية» جـ ١، ص ١٩٢.

(٢) بلخ مدينة مشهورة فى العصور القديمة والعصور الوسطى فى إقليم خراسان« كانت سابقا القصبة السياسية لولاية خراسان ثم أصبحت المركز الثقافى والدينى لمملكة طخارستان، وفتحت المدينة فى عهد الإسلام أولا من قبل الاحنف بن قيس سنة ٣٢ للهجرة، ثم أعاد فتحها قيس بن الهيثم أو عبدالرحمن بن سمرة سنة ٤٣ هجرية ولعل والى بلخ الذى يشير إليه الترمذى هو يعقوب بن ليث أو عمرو بن ليث، والمعروف تاريخيا أن ولاة بلخ فى عهد العباسيين كانوا جميعا امراء منحدرين من خطل وكان أحد هؤلاء الأمراء داود بن عباس البانيجورى قد طرده يعقوب بن ليث عام ٢٥٦ هـ وفى سنة ٢٨٦ هـ أسر إسماعيل بن أحمد عمرو بن ليث ومن ذلك الحين انتقلت المدينة إلى حكم الساسانيين، هامش ختم الأولياء ص١٧ . ١٨.

(٣) الترمذى «بدوشأن أبى عبدالله» ص١٧ ـ ١٨.

(٤) الدكتور الجيوشى «المسائل المكنونة» ص ١٥.

(٥) الدكتور الجيوشى «معرفة الأسرار» ص ١٣.

على شئ. يصف هذه المحنة بقوله: «كانوا صيروا السلطان والبلاد على بحال لا اجترئ أن أطلع رأسى»[1] ولذلك تركت لديه آثارا عميقة، وأعقبته عواقب بالغة، فقد أسقطت قدره عند الناس، كما أيسته منهم، وأحرقت حرارتها بقية رغبته فيهم، واعتباره لتقاليدهم وموازينهم، حتى أصبح أكثر قدرة على تذليل نفسه، وتمكنا من قسرها على فعل ما كانت تأبى فعله، وأداء ما كانت تكره أداءه.. وذلك لسقوط منزلتها عند الخلق وهوانها عند الناس، حتى وجد لذلك ـ مع وسمه بمظاهر ـ الذلة ـ حلاوة تصل إلى قلبه.[2].

ولقد كانت لهذه المحنة آثار بعيدة المدى عند الحكيم فقد عملت على تطهير قلبه، ومساعدته على المضى فى رياضة النفس ويقول فى ذلك: «وكان ذلك من الله ـ تبارك اسمه ـ سببا فى تطهيرى، فإن الغموم تطهر القلب.. فتواترت على الهموم حتى وجدت سبيلا إلى تذليل نفسى فكنت أراودها على أمور قبل ذلك من طريق الذلة، فتنفر ولاتطاوعنى، مثل ركوب الحمار فى السوق، والمشى حافيا فى الطرق، ولبس الثياب الدون وحمل شئ مما يحمله العبيد والفقراء، فيشتد على ذلك، فلما أصابتنى هذه المقالة والغموم، ذهبت شرة نفسى، فحملت عليها هذه الأشياء فذلت وأطاعت، حتى وصل إلى قلبى حلاوة تلك الذلة»[3].

وهكذا انتهز الحكيم فرصة هذه الشدة، ليحكم سيطرته على نفسه ويتم له إخضاعها وتذليلها، ويتخلص من شهواتها الكامنة، وأهوائها المتربصة. وهكذا فعل حتى أنه يحدثنا أنه كان يمشى حافيا فى الطرقات ويلبس الدون من الثياب، ويحمل مايحمله العبيد والفقراء، وكانت نفسه تأنف قبل ذلك أن تأتى هذه الأمور إلا أنه استطاع إخضاعها وترويضها وظلت هذه حاله من الاجتناب الكامل للشهوات،

---

(١) الحكيم الترمذى «بدو شأن أبى عبدالله» ص ٢١، فقرة رقم ٩، تحقيق الدكتور عثمان يحيى.

(٢) الدكتور بركة «الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية» جـ ١، ص١٩٣.

(٣) الحكيم الترمذى «بدو شأن أبى عبدالله» ص ١٨، فقرة رقم ٦.

والانشغال الكامل بالعبادات والخلوة الاختيارية التى تعززها عزلة إجبارية عن بقية الناس، اللهم إلا فئة قليلة من الأخوان تشاركه فى مشربه، ويجتمعون معا على الذكر، ويقضون فيه كثيرا من أوقات الليل[١].

ويبدو أن حلقات الذكر التى يلتقى فيها الحكيم الترمذى مع أخوانه الذاكرين لم يكن لها بيت معين من البيوت، وإنما كانت تقوم حسب رغبة كل واحد من الإخوان فى استضافة القوم، وليس هناك مايمنع من قبول أن هذه الاجتماعات كانت تتم فى بيوت الذاكرين بالتناوب والنص الذى تركه لنا الحكيم الترمذى يقول: «فبينما أنا كذلك إذ اجتمعنا ليلة على الذكر فى ضيافة لأخ من أخواننا».[٢]

وخلال هذه الفترة المليئة بالمجاهدات والرياضيات، كان الحكيم يمر بكثير من التجارب الروحية العميقة التى يصعب علينا ـ كما يقول الدكتور بركة ـ إدراكها من الخارج، كما يصعب على صاحبها وصفها أو إيضاحها، ويقص علينا الحكيم قصة ظاهرة صوفية وقعت له، قد تكون غريبة على بعض الناس، ولكنها ليست غريبة على سالكى الطريق[٣].

يقول الحكيم الترمذى ـ بعد أن ذكر لنا أنه اجتمع ليلة على الذكر فى ضيافة لأخ من الأخوان ـ «فلما مضى من الليل ما شاء الله رجعت إلى المنزل، فانفتح قلبى فى الطريق فتحا لا أقدر أن أصفه وكأنه وقع فى قلبى شئ، طابت له نفسى والتذت به، وفرحت حتى مررت فما استقبلنى شئ هبته، حتى أن الكلاب ينبحن فى وجهى، فآنس لنباحهن من لذة وجدت فى قلبى، حتى بدا لى أن السماء بكواكبها وقمرها صارت إلى قرب الأرض، وأنا فيما بين ذلك أدعو ربى، ووجدت كأن قلبى نصب فيه شئ، فإذا وجدت تلك الحلاوة التوى وتقبض بطنى والتوى بعضه على بعض، من شدة

---

(١) الدكتور الجيوشى «مقدمة المسائل المكنونة» ص ١٥، والدكتور بركة الحكيم الترمذى، جـ ١، ص١٩٣.

(٢) الترمذى «بدو شأن أبى عبدالله» ص ١٩، الفقرة رقم ٧.

(٣) الدكتور بركة «الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية» جـ ١، ص ١٩٢.

اللذة واعتصر، وانتشرت فى صلبى وعروقى تلك الحلاوة، وكان يخيل إلى أن قربى من مكان قرب العرش»[1].

يقول الدكتور عبدالفتاح بركة:«وهذه الظاهرة التى قصها علينا الحكيم هى حالة من حالات الوجد أو اللوامع الصوفية، تدلنا بكل وضوح على أن الترمذى استغرق فى حالة النشوة التى صادفته، ولكنه لم يفقد إدراكه العادى، فالكلاب تنبح فى وجهه، وهو يدرك أنها كلاب وأنها تنبح، وأن مثل ذلك يستوحش منه الإنسان.. ولكنه يقرر أنه قد أنس لنباح الكلاب، لما يفيض به قلبه من اللذة، وهو يدرك أن الكواكب والقمر والسماء كلها أجرام بعيدة جداً، إلا أنه لشدة ما حل فى قلبه من هذه اللوامع أحس كأنها ذاتية، قد صارت إلى قرب الأرض.. فالأشياء هى هى لم تتغير فى حسه، ولم يتغير وضعها فى نفسه.. ولكن قوة الوارد الروحى لم تتركه يتأثر بها التأثر العادى، لأن روحه ووجدانه متجهان اتجاها آخر غير هذا الاتجاه العادى[2].

واستمر الحكيم على هذا السلوك حيث تخلص قلبه وتجرد من كل غاشية ويقول مشيرا إلى ماسبق:« فما زال ذلك دأبى كل ليلة إلى الصباح، أسهر ولا أجد نوما، فقوى قلبى على ذلك، وأنا متحير لا أدرى ما هذا إلا أنى ازددت قوة ونشاطا فيما كنت فيه»[3].

وليس من شك فى أن هذه النصوص التى ذكرها الحكيم، قد زودتنا بألوان من المجاهدات التى أخذ الحكيم بها نفسه فى سلوكه حتى أسلمته إلى ماوصل إليه.. وقد بدا للحكيم فى خلال مجاهداته الرغبة فى تحصيل المعارف على اختلاف أنواعها، فاشتغل بتقدير شأن الزوال، وتعلم الحساب، من أمر البروج والاصطرلاب

---

(١) الترمذى «بدو شأن أبى عبدالله» ص ١٩، الفقرة رقم ٧.

(٢) الدكتور بركة «الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية» جـ ١، ص ١٩٤.

(٣) الحكيم الترمذى «بدو شأن أبى عبدالله» ص ١٩، فقرة رقم ٧.

وماشاكل ذلك، حتى أخذ منه بقسط كبير، غير أنه انصرف عن المضى فى تحصيل هذه المعارف بسبب رؤيا رؤيت له تنصحه بترك الاشتغال بهذا النوع من العلوم خشية أن يؤثر ذلك على تقدمه الروحى، وسلوكه، ومجاهداته[١]..

وقد جاء فى كتاب «بدو شأن أبى عبدالله» : قول الحكيم: «ثم اشتغلت فى سنة من هذه السنين، بتقدير شأن الزوال، وتعلم تلك الحسابات، من أمر البروج والاصطرلاب، فأمعنت فيه، فرئى لى فى المنام، كأن قائلاً يقول له: قل لابن على ليس هذا الذى أنت فيه من شرطك ولا مذهبك، فاجتنبه.. قال : فامتلأت خوفا ورعبا مما رأيت من هيبة ذلك القائل، وأراه فى صورة شيخ أبيض الرأس واللحية، طيب الريح، حسن الوجه، أتوهم أنه ملك، فقال: قل لابن على ألق هذا فأنى لا أمن أن يكون هذا حجابا بينك وبين رب العزة، فالله الله فى نفسك فى هذا الخلق، فأنك لست بأذنيد.[٢] أنما أنت أمة فأخبره بهذا ولا تدع نصيحة الله فى خلقه»[٣].

وان المتتبع لفقرات كتاب «بدو شأن أبى عبدالله» الذى كتبه الحكيم الترمذى يجد أن سيرة سلوكية خاصة، حفلت بالرؤى التى كان يراها الحكيم أو يراها غيره له، وقد كان الحكيم يلتزم بهذه الرؤى فى مجاهداته وسلوكه.

والرؤيا عبارة عن إدراكات لروح النائم، تأتيها بغير الحواس الخمس المعروفة، عند إبطال هذه الحواس بالنوم، وطريق هذه الحواس هو ما يعبر عنه بالبصيرة، التى هى قوة للقلب منورة بنور القدس، منكشــف حجابها بهداية الحق، ترى بها حقائق الأشــياء وبواطنها[٤].

ولما كانت الرؤى ليست كلها بمثابة واحدة، وتتنوع إلى عدة أنواع فأنه يعنينا منها مايأتى بكشف، ويهدى إلى طريق.

---

(١) الدكتور الجيوشى «مقدمة المسائل المكنونة» ص١٤.

(٢) بأذنيد كلمة فارسية معناها: شئ حقير، أى أمر تافه لايساوى شئ.

(٣) الحكيم الترمذى «بدو شأن عبدالله» ص ٢٧، فقرة رقم ١٧.

(٤) الدكتور عبدالمنعم الحفنى «معجم مصطلحات الصوفية» ص ٣٥، ط دار المسرة، بيروت.

قال تعالى : ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾[١].

قال بعض المفسرين: يعنى الرؤيا الصالحة يراها الإنسان أو ترى له فى الدنيا[٢].

وقد وضع الإمام مسلم بن الحجاج فى صحيحه كتابا سماه «كتاب الرؤيا» ذكر فيه ستة وعشرون حدثا فى موضوع الرؤيا[٣] مما يؤكد أمر الرؤيا، ويحقق منزلتها. وأن تجارب الصالحين منذ عصور متطاولة دلت على أن تزكية النفس وتطهيرها والالتجاء إلى الله، والتقرب إليه كل ذلك يسمو بالإنسان إلى عالم من الروحانية، تستشرف فيه النفس إلى الملأ الأعلى، فتفيض عليها منه نفحات وإلهامات، ومعرفة لاتتأتى لذوى النفوس المادية، الذين شغلوا بالدنيا عن الدين، وبالمادة عن الله[٤].

ويقول الإمام محمد عبده: أما أرباب النفوس العالية، والعقول السامية، من العرفاء، ممن لم تدن مراتبهم من مراتب الأنبياء، ولكنهم رضوا أن يكونوا لهم أولياء، وعلى شرعهم ودعوتهم أمناء، فكثير منهم نال حظه من الأنس، بما يقارب تلك الحال، حال الاتصال فى النوع أو الجنس، لهم مشارفة فى بعض أحوالهم على شئ من عالم الغيب ولهم مشاهد صحيحة فى عالم المثال، لاتنكر عليهم لتحقيق حقائقها فى النواقع، فهم لذلك يستبعدون شيئا مما يحدث به عن الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم - ومن ذاق عرف، ومن حرم انحرف، ودليل صحة مايتحدثون به وعنه : ظهور الأثر الصالح منهم، وسلامة أعمالهم مما يخالف شرائع أنبيائهم، وطهارة فطرهم، مما ينكره العقل الصحيح، أو يمجه الذوق السليم، وانتفاعهم بباعث من الحق الناطق فى سرائرهم، المتلألىء فى بصائرهم إلى دعوة من يحف بهم إلى ما فيه خير العامة، وترويح قلوب الخاصة[٥].

---

(١) سورة يونس، الآيات : ٦٢ . ٦٣ . ٦٤.

(٢) الشيخ عبدالغنى النابلسى «تعطير الأنام فى تفسير الأحلام»ص ٣ ط دار إحياء الكتب العربية، الحلبى.

(٣) الإمام مسلم «صحيح مسلم» جـ ٥، ص ١١٥، إلى ١٢٣، ط كتاب الشعب.

(٤) الدكتور عبدالحليم محمود «المنقذ من الضلال» ص ٣٤١، ط دار الكتاب اللبنانى.

(٥) الشيخ محمد عبده «رسالة التوحيد» ص ١٥٥، ١٥٦، ط كتاب الهلال، رمضان ١٣٨٢هـ.

المبحث الخامس

لماذا كان الترمذى حكيماً؟

إن الباحث فى ترجمة الحكيم الترمذى يجد أن أصحاب الطبقات والتراجم لقبوه بألقاب علمية كثيرة، وجميع هذه الألقاب تدلنا على مكانة الرجل عند العلماء وأهل المعرفة، كما أن هذه الألقاب تشير إلى عطائه فى العلم والسلوك والخلق والطريق، وقد عرف أهل الفضل هذا عن الحكيم فأطلقوا عليه ما أطلقوا من ألقاب، لها دلالتها وحقيقتها.

فالسبكى فى طبقات الشافعية ذكر عنه بأنه «المحدث الزاهد أبو عبدالله الحكيم الترمذى الصوفى صاحب التصانيف»[١].

والذهبى فى «تذكرة الحفاظ» قال عنه:«أنه الإمام الزاهد الحافظ المؤذن صاحب التصانيف»[٢].

وابن حجر فى «لسان الميزان» ذكر من ألقابه :«المؤذن المعروف بالحكيم أبو عبدالله»[٣].

«ومن الألقاب الملازمة التى لايكاد يذكر بدونها، والتى لاتطلق إلا عليه إذا ذكرت منفردة عن اسمه، فهى : الترمذى والحكيم معا ويختلف استعمالها تقديما وتأخيرا، بل يتغير وضع لقب الحكيم فى الاستعمال حيث تستعمل أحيانا قبل الاسم وأحيانا بعده»[٤].

---

(١) السبكى «طبقات الشافعية» جـ ٢، ص ٢٤٥.

(٢) الذهبى «تذكرة الحفاظ» جـ ٢، ص ٦٤٥.

(٣) ابن حجر «لسان الميزان» جـ ٢، ص ٣٠٨

(٤) الدكتور بركة «الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية» جـ ١، ص ٥٢.

أما لقب الترمذى فلأنه كان من عادة العلماء أن تنسب العالم إلى بلدته لعدة أغراض، منها: أمانة النقل، وتمييز المصادر، ونسبة الشئ إلى صاحبه الحق عند اشتباه الأسماء مع اختلاف البلدان، وعند توجه النقد بعد ذلك إلى سنده أو متنه، وغير ذلك من الأغراض العلمية التى لاتكاد تحتاج إلى تنبيه، ولم يثر هذا اللقب شيئا من المشاكل يلفت النظر إليه أو إلى البحث فيه[1].

أما تلقيب الترمذى بالحكيم، فهو أكثر الألقاب استعمالا، وأعظمها شيوعا وانتشارا، وقد حظى هذا اللقب بالبحث والدراسة عند بعض المهتمين بالدراسات العلمية.. فقالوا فى سبب تلقيب الترمذى بالحكيم «أن كان أكثر اهتمامه هو تبين العلاقة بين الحقائق النفسية وبين الجسم الإنسانى وربط بعض ذلك ببعض، وهو على ما يظهر كان على معرفة بتركيب الجسم مما يدل على أنه درس شيئا من الطب»[2].

وقالوا أيضا فى سبب تلقينه بالحكيم: «لأنه كان حريصاً على أن يجمع بين الناحية الروحية القديمة للثقافة الإسلامية وبين المنهج العقلى الذى وجد فى عصره»[3].

وقالوا : «لأن الترمذى كان أول مسلم بدت لديه براعم الأفكار الفلسفية الإغريقية فكان بالتالى: الممهد لمذهب العرفان فى التصوف الإسلامى»[4].

ولاشك أن البحث العلمى يرفض القائلين بأن الحكيم الترمذى سمى حكيما لأنه بدت لديه براعم الأفكار الفلسفية الإغريقية.. وهذا القول غير دقيق لأن الكندى المتوفى حوالى ٢٥٣ هـ، وأبا الهذيل العلاف المتوفى عام ٢٣٤هـ وإبراهيم النظام

---

(١) الدكتور بركة «الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية» جـ ١، ص ٥٢.

(٢) الحكيم الترمذى «كتاب الرياضة وأدب النفس» تحقيق الدكتور آربرى والدكتور على حسن عبدالقادر «المقدمة» ص ١٢، ١٣.

(٣) الحكيم الترمذى «حقيقة الأدمية» تحقيق الحسينى، المقدمة ص ٧، مطبعة التجارة بالاسكندرية.

(٤) الحكيم الترمذى «ختم الأولياء» هامش ص ٤ مقدمة الدكتور عثمان يحيى.

المتوفى عام ٢٥٦ هـ، كانوا أول من تأثر بالفلسفة اليونانية فى عصرهم، ولقد أشارت المصادر إلى ذلك فضلا عن أن آرائهم ذاتها تؤكد ذلك التأثر، ومع ذلك فإن العلاف والنظام لم يلقب واحد منهما بلقب الحكيم، أما الكندى فهو وحده الذى لقب به بوصفه أول فلاسفة العرب والإسلام، وعلى ذلك فإن إرجاع تسمية الترمذى بالحكيم إلى ذلك السبب ليس صحيحا » [١].

ونجد كذلك أن تلقيب الترمذى بلقب الحكيم بسبب أنه كان على معرفة بتركيب الجسم مما يدل على أنه درس شيئا من الطب.. نجد هذا الإرجاع بعيد، وذلك كما يذكر أحد العلماء:« أن الحكمة غير الطب، وأن الحكيم غير الطبيب، وقد يجتمعان فى فرد واحد باعتبارين لا باعتبار واحد. فالحكيم قد يكون طبيبا إذا تعلم الطب، فيدعى طبيبا كما يدعى حكيما، وقد لا يكون طبيبا إذا أهمل تعلم الطب وقد يكون الطبيب حكيما اذا أعد نفسه هذا الإعداد، وقد يكون خاليا من الحكمة إذا لم يكن لديه هذا الاستعداد، فلا يدعى بالحكيم وان دعى بالطبيب، على أنه يغلب على من جمع الطب والحكمة أن يلقب بأشرف اللقبين وهو الحكيم، فالجهة بينهما منفكة »[٢].

«فالتلقيب بالحكمة لايحتمل التلقيب بالطب ضمنا إلا بقرينة من القرائن، كما إذا اشتهر بذلك أو عرف عنه، وقد يكون هذا هو السر فى أن كثيرا من المترجمين للفلاسفة يحرصون على وضع لقب الطبيب بجوار لقب الفيلسوف، عند ترجمتهم لمن يكون فيلسوفا وطبيبا معا، وذلك خوفا أن يتبادر إلى الذهن أنه كان فيلسوفا فحسب، وأنه لم يكن محصلا لصناعة الطب، وعلى ذلك فلا يمكن أن نستنتج أن تلقيب الترمذى بالحكيم كان بسبب معرفته بالطب إلا بقرينة، وذكر معرفته لأجزاء البدن لايصلح قرينة على ذلك اذ أن معرفة أجزاء البدن من المعارف العامة »[٣].

---

(١) الحكيم الترمذى «علم الأولياء» تحقيق الدكتور سامى نصر لطف المقدمة ص ٢٣.

(٢) الدكتور بركة «الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية» جـ ١، ص ٥٤.

(٣) المرجع نفسه ص ٥٥.

ومن هنا كان تلقيب الترمذى بالحكيم يعود إلى أسباب أخرى غير الطب وغير الفلسفة الاغريقية، وقد جد الباحثون فى الوصول إلى معرفة هذه الأسباب.

ومحقق كتاب «علم الأولياء» للحكيم قد أرجع السبب فى ذلك إلى عدة عوامل، جاء فيها قوله:

١ ـ ولعلنا نرجع السبب فى ذلك إلى قدرة الترمذى على سبر أغوار النفس الإنسانية، واستكناة باطنها لمعرفة علة مرضها، وكيفية معالجتها، وتلمسه العلاج فى أساليب فلسفية، وفى مفاهيم عقلية وروحانية كالتطهير والتأديب والتهذيب والرياضة الروحية والمجاهدة الذاتية.

٢ ـ كما أننا نرجح أن يكون الترمذى قد لقب بالحكيم لمنهجه فى الحديث عن الإنسان: مفهومه وكيفية خلقه، وتسويته وتقسيم أدوات معرفته بين حواس ظاهرة وأخرى باطنة. فقد كان حديث الترمذى عن الحواس الباطنة حديثا طريفا كل الطرافة وكانت معظم آرائه فيها أصيلة كل الأصالة حين قسمها إلى صدر وقلب وفؤاد ولب، وجعل لكل أداة من هذه الأدوات درجة من المعرفة ومرتبة من حيث اليقين والصدق..

٣ ـ وكذلك فإن تحليلاته الرائعة والعميقة للألفاظ والمصطلحات تدل على خبرة واسعة، ودراية شاملة بالأشياء وبالاسماء وبالمعانى.

٤ ـ ثم ان كثيرا من الأمثلة التى كان يسوقها الترمذى بقصد توضيح فكرة أو تبيسط رأى، إنما تدل على منحى تجريبى فى تفكير الترمذى، كما تدل أيضا على خبرة النفس الإنسانية، وعلى وعى بالعقل الإنسانى، وكيف أن الإنسان يفتقر دائما ـ فى تصديقه بمعظم الأشياء ـ إلى استدلالات وأمثلة من الواقع لكى يمكنه تصور الفكرة وتعقلها، ومن ثم الاعتقاد بها، فالتجريد كما نعلم يبدأ من

الواقع ويرتبط به ارتباط الكليات بالجزئيات التى استخلصت منها، وينتمى الواقع إلى الفكر انتماء الجزئى إلى الكلى.

٥ ـ ومما يمكن أن يضاف إلى أسباب تسمية الترمذى بالحكيم، تلك التقسيمات الطريفة للعلم وتقسيمه الحكمة إلى عليا ودنيا، ولعله قد وصل فى حياته إلى الحكمة العليا وحصل على هدفه الأسمى ومن هنا استحق أن يكون حكيما لاتساق آرائه مع هدفه منها ومع المنهج الموصل إلى تحقيق هذا الهدف[١].

والدكتور عثمان إسماعيل محقق كتاب «ختم الأولياء» يذكر فى هامش المقدمة: أنه يرى أن لقب الحكيم أسند إلى الترمذى خاصة لأن التعاليم الصوفية قد خطت على يديه خطوة حاسمة فى سيرها الموفق المطرد، فهى عنده لم تعد مجرد أحوال نفسية ينفعل لها الصوفى فى جلوته، أو مشاعر ذاتية يحس بها فى خلوته، بل حقائق موضوعية لها كيانها المستقل وعالمها الخاص، وحكمة الترمذى فى تصوفه تبدو فى هذا التحليل البارع لطبيعة النفس الإنسانية وفى هذا التصور الرائع لمناهج السلوك الروحى، وأخيرا فى هذا التمييز الحاسم بين أنماط الحكمة ودرجات المعرفة»[٢].

وقد يكون واحدا من هذه الأمور سببا فى تلقيب الترمذى بالحكيم وقد تكون كلها، وقد يضاف إليها غيرها، والذى يبدو واضحا لأهل العلم: أن المراد بحكمة الحكيم هو الحكمة الإسلامية التى انطلقت من القرآن الكريم وسنة الرسول ﷺ..

وأصل مادة «الحكمة» موضوع لمنع يقصد به إصلاح، والحكمة العدل والعلم

---

(١) راجع الدكتور سامى نصر لطف مقدمة كتاب «علم الأولياء» ص ٢٣ـ ٢٤، ط مكتبة الحرية.

(٢) راجع الدكتور عثمان اسماعيل، مقدمة كتاب «ختم الأولياء» هامش ص ٥، ط بيروت.

والحلم والنبوة والقرآن وطاعة الله والفقه فى الدين والعمل به أو الخشية أو الفهم أو الورع أو العقل أو الإصابة فى القول والفعل والتفكر فى أمر الله واتباعه[١].

والحكمة تحقيق العلم واتقان العمل[٢]، ومعرفة آفات النفس والشيطان والرياضيات وقيل هى معرفة الحق لذاته والخير لأجل العمل به [٣].

والحكمة عند الحكيم الترمذى ـ حكمتان كما أن العلم علمان: علم بالله، وعلم بأمر الله، ولكل علم حكمة، والعلم ما ظهر، والحكمة ما بطن منه، وكما أن العلم علمان، فكذلك الحكمة حكمتان، حكمة من العلم به، وهى الحكمة العليا، وحكمة من العلم بأموره وتدبيره وصنعته[٤].

فالعلم عند الترمذى هو معرفة ظواهر الأشياء والموجودات، أما الحكمة فهى العلم بجواهر الأشياء وحقائقها الداخلية[٥].

ومرتبة الحكمة عند الترمذى تعود إلى:«حكمة تتولد من كثرة التجارب، وحكمة تتولد من صفاء المعاملة، وهذه تدلك على الآخرة وحكمة تتولد من القرب والمشاهدة وإنها الحق لأهلها، أعلاها وأجلها والتى تتولد من التجربة تدلك على مصالح الدنيا وهى أدناها، والثانية على الآخرة، والثالثة على الجود والحق[٦].

والحكمة التى تتولد من القرب والمشاهدة هى المتصلة بالحق وهى الحكمة العليا «حيث انكشف كل غطاء دق أو جل، وخشعت النفس لله وجالت قلوبهم فى الملكوت الأعلى، وفتح لهم من الحكمة العليا، قال جل جلاله وعظم شأنه، وتعالى كبرياؤه، وتقدست أسماؤه، وسمت كلماته سبحانه وبحمده ﴿ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾[٧]

---

(١) انظر الفيروزبادى «بصائر ذوى التمييز» جـ٢، ص ٤٨٧، ٤٩١، ط المجلس الأعلى بالقاهرة.
(٢) راجع الشيرازى البيضاوى «أنوار التنزيل» ص ٥٩، ط الحلبى ١٣٧٥ هـ.
(٣) انظر الدكتور عبدالمنعم الحفنى «معجم مصطلحات الصوفية» ص ظ ،ط دار المسيرة بيروت.
(٤) الحكيم الترمذى «الكلام على معنى لا إله إلا الله أو شقاء العلل» ص ٣٣، ط مطبعة حسان.
(٥) الدكتور سامى نصر لطف «مقدمة كتاب علم الأولياء» ص ٨٣.
(٦) الحكيم الترمذى «معرفة الأسرار» ص ٨٤ ، ٨٥ تحقيق الدكتور الجيوشى، ط النهضة العربية.
(٧) سورة البقرة، الآية : ١٥١.

فالكتاب ظاهر القرآن، والحكمة باطنة، وهى التى يقال لها حكمة الحكمة وهى الحكمة العليا، فلما أتاهم من الحكمة العليا عاينوا مافى الملكوت بأبصار القلوب فصارت تلك المعاينة بصيرة للنفوس»[١]

فالحكمة مصطلح إسلامى أصيل، والحكيم إنسان أعطى ينابيع الحكمة وقد جاء الأصل السادس والثمانون والمائتان فى كتاب «نوادر الأصول للحكيم الترمذى» تحت عنوان «فى عشرة الحليم وتجربة الحكيم».

«فالحكمة من نور الجلال فإذا أعطى العبد انفجرت ينابيع الحكمة على قلبه، فهذه الحكمة ينبوعها على قلبه، فهى جاثمة متراكمة، ومالم يأخذه بالتجارب لم تقدر النفس على مطالعة الحكمة لأن النفس بلهاء غنمية مشغولة بالشهوات فكيف تدرك الحكمة والحكمة باطن الأمور وأسرار العلم»[٢].

ودلتنا أبحاث العلماء على «أن لقب الحكيم لايطلق على كل فرد بل يطلق على أفراد قلائل من البشر، فهو إذن من الألقاب الاصطلاحية التى تطلق لمعنى خاص يلاحظ فيمن تطلق عليه»[٣].

ولايخفى أن هذه المعانى الخاصة وجدت عند الحكيم ولذلك استحق هذا الاصطلاح الخاص، فقد كانت آيات القرآن الكريم والسنة النبوية ـ بشتى مادار حولهما وما جاء عنهما ولهما وبهما من معارف وعلوم ـ مصدرا أصيلا وخصبا لآرائه وحكمته وأقواله، وسلوكه وتصانيفه. كان مفكرا واسع العطاء، ومن ثم أطلق عليه الحكيم، ولقب الحكيم من الألقاب النادرة التى يحتاج من تطلق عليه إلى قدرات خاصة، وفتوحات إلهية ومواهب متعددة، ونحسب أن الحكيم الترمذى كان كذلك.

---

(١) الحكيم الترمذى «علم الأولياء» ص ١٣٩.

(٢) الحكيم الترمذى «نوادر الأصول» ص ٤١٥.

(٣) الدكتور بركة «الحكم الترمذى ونظريته فى الولاية» جـ ١، ص ٥٦.



(الفصل الثانى)

جهود الحكيم العلمية وآثاره

* جهود الحكيم فى التفسير
* جهود الحكيم فى الفقه
* جهود الحكيم فى علم الكلام
* أثر الحكيم و آثاره

المبحث الأول

جهود الحكيم فى التفسير

لقد كان الحكيم الترمذى ، واسع الثقافة، غريز المادة، ارتحل لطلب الحديث، وجاب الآفاق فى خراسان، والعراق، وحدث بنيسابور وأخذ عن أئمة المحدثين، وكبار العلماء، ثم أنه لقى أكابر الصوفية وأطلع على جميع ثقافات عصره، فامتدت ثقافته إلى جميع فروع المعرفة[١].

وقد بدأ اهتمام الحكيم بالقرآن منذ رحلته إلى الحج التى تحدث عنها فى رسالته، «بدو شأن أبى عبدالله» حيث سأل الله سبحانه وتعالى عند الملتزم أن يرزقه حفظ كتابه، فرجع وقد بدا عليه الحرص على حفظ القرآن، فأقامه ذلك بالليل، وكان لايمل من قراءته، وقد يظل فى قراءاته إلى الصباح حتى وجد حلاوة ذلك[٢].

وركز الحكيم فكره فى فهم القرآن الكريم، والتعمق فى استخلاص أسراره ومعانيه الظاهرة والباطنة، وقد انعكس هذا الفهم على أثار الحكيم كلها فى شتى فروع المعرفة التى ناقشها فى كتبه ورسائله المتعددة.. وكانت حصيلة هذا الاهتمام بالقرآن عدداً من المؤلفات بين كتاب ورسالة تتصل بالقرآن الكريم، وتكشف عن جوانب مهمة من فهمه لكتاب الله عز وجل»[٣] ومن هذه المؤلفات:

---

(١) الاستاذ حسنى زيدان مقدمة« تحصيل نظائر القرآن» للترمذى ص ١٠، ط مطبعة السعادة بمصر.

(٢) الحكيم الترمذى، «بدو شأن أبى عبدالله» ص ١٤١ بتصرف.

(٣) الدكتور الجيوشى«الحكيم الترمذى ومنهجه فى تفسير القرآن» الضياء عدد ١٣، س٤، ص ٩٨دبى.

١ ـ تفسير القرآن الكريم ذكر الهجويرى فى «كشف المحجوب» :أن الحكيم كان قد بدأ تفسيرا ولم يف العمر بإتمامه، وهو منتشر بين أهل العلم بالقدر الذى عـمله[١].

٢ ـ كتاب «الأمثال من القرآن والسنة» : والترمذى فى هذا الكتاب ينهج منهجا فريدا فى استعراضه لظاهرة خاصة فى التعبير عن المعانى، تعمد إلى ضرب الأمثال للإيضاح والبيان[٢]، وجاء فى مقدمة الكتاب: «أن ضرب الأمثال لمن غاب عن الأشياء، وخفيت عليه الأشياء، فالعباد يحتاجون إلى ضرب الأمثال لما خفيت عليهم الأشياء، فضرب الله لهم مثلا من عند أنفسهم، لا من عند نفسه ليدركوا ماغاب عنهم»[٣].

ومن تدبير الله لعباده أن ضرب لهم الأمثال من أنفسهم لحاجتهم إليها، ليعقلوا بها، فيدركوا ماغاب عن أبصارهم وأسماعهم الظاهرة [٤].

٣ ـ كتاب «تحصيل نظائر القرآن» الذى يبين لنا أن الحكيم أجاد فى الإحاطة باللغة العربية وفقهها. وأنه صاحب منهج فى التذوق لمعانى القرآن الكريم»[٥].

٤ ـ تفسير آية لاشرقية ولاغربية، وقد تناول تفسيرها فى أكثر من موضع من كتبه ورسائله»[٦] ولا زال هذا التفسير مخطوطا فى مكتبات العالم».

٥ ـ طائفة كبيرة من المسائل يتناول كل منها تفسير آية من القرآن الكريم ومعظمها موجود ضمن مجموعة «ليبزيج»[٧].

---

(١) الهجويرى ، كشف المحجوب جـ ١، ص ٣٥٣،. وهذا التفسير لم يتم العثور عليه حتى الآن.

(٢) تم تحقيق هذا الكتاب بمعرفة الأستاذ على محمد البجاوى، طبع دار نهضة مصر للطبع والنشر.

(٣) الدكتور الجيوشى، «الحكيم الترمذى ومنهجه فى تفسير القرآن» الضياء، ع١٣، ص ٩٨ ،س٤ دبى.

(٤) الحكيم الترمذى، «الأمثال من القرآن والسنة»، ص ١، ٢.

(٥) حقق هذا الكتاب«تحصيل نظائر القرآن .الأستاذ حسنى نصر زيدان وطبع سنة ١٣٩٠ هـ بمطبعة السعادة.

(٦) الدكتور الجيوشى، الضياء ع ١٣، ص ٩٨، س٤. دبى.

(٧) مجموعة ليبزيج رقم ٢١٢ القسم العربى.

ومما يسترعى انتباه الباحث أن الحكيم الترمذى قد عالج فى كثير من مؤلفاته قضايا قرآنية وكان الحكيم يرى أن القراء ليسوا بحمله للقرآن ـ كما يحلوا لهم أن يدعوا ذلك ـ لأن حمل كتاب الله لايكون بحمل حروفه وألفاظه فقط، يقول الحكيم: «فحملة القرآن من حمل معانيه قلبا، وحمل حروفه منطقا، وحمل كسوته صدرا، فإن القرآن كلام الله عزوجل، وعلى كل حرف منه نور، وذلك النور كسوته، فهو يطلب قلبا طاهرا، ونفسا صافية، وصدرا مشروحا، حتى يلج ذلك النور مع الحروف. فإذا لم يجد قلبا بهذه الصفة، وقف خارجا، ولم يكن فى القلب إلا معانى الحروف ـ أعنى معانى الحروف علما ـ قال الله تعالى :﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾[1] فالكتاب هو الحروف المؤلفة المنظمة بنظامه المتضمنة معانى كثيرة، والنور كسوته، والكتاب مشتق من الكتب وهو النظام، ومنه سميت الكتابة. والقراءة اتباع الحروف بعضها بعضا قال الله تعالى:﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾[2] فإذا وجد قلبا طاهرا حل به تبعه النور، فأضاء الصدر بمعانيه، وإذا لم يجده بقى «علم» الحروف وعلمه بلا نور، فيضئ الصدر بمعانيه، ولم تصر الأخبار كالمعاينة»[3].

«فحمل القرآن إنما يحتاج إلى قلب طاهر ونفس صافية، وصدر مشروح بالإيمان كى يدرك معانيه وكسوته. أما قراءة القرآن وأداؤه بغير هذا القلب الطاهر والنفس الصافية، والصدر المشروح، فإنما هى اتباع الحروف بعضها، وتحصيل لمعانى الحروف علما فحسب. فإذا لم يجد قلبا بهذه الصفة وقف خارجا، ولم يكن فى القلب إلا معانى الحروف»[4].

فالقراء فى نظر الحكيم الترمذى يحصلون معانى القرآن علما فحسب وليس هذا هو المراد لأن المطلوب هو تحصيل معانى القرآن علما ومعرفة ولايتأتى ذلك إلا

---

(١) سورة المائدة، الآية رقم ١٥.

(٢) سورة القيامة، الآية رقم ١٨.

(٣) الحكيم الترمذى «الفروق ومنع الترادف» مخطوط ورقة رقم ٦٢، ٦٣ بلدية الاسكندرية رقم المخطوط ٣٥٨٦ج.

(٤) الاستاذ عبدالمحسن الحسينى «المعرفة عند الحكيم الترمذى» ص ٨٢.

بالقلب الطاهر، والنفس الصافية، والصدر المشروح وتلك هى الحقيقة التى تحتاج إلى اهتمام من حملة القرآن الكريم يقول الحكيم: «وإنما القرآن كلام الله سبحانه تكلم به، وكلم به عباده، وأنزل كلامه وحيا تنزيلا مع الكسوة، وكسوته نوره، وقال: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾[1] «فالنور الذى من الله تعالى هو أصل الأنوار، انشعب، فصار فى كل حرف منه شعبة، ثم ألفها العالم الجواد الجليل بعلمه وحكمه وعدله، فقسمه بين الحروف، والكتاب هو الحروف المنظومة، والكتب النظام، ومنه سميت الكتيبة فى الجيش، لأنها تتبع بعضها بعضا، فتلك الحروف المنظومة المؤلفة هى الكتاب ألفها رب العالمين بجوده ولطفه ثم بحكمته وعدله، ثم أجراها من المجرى بعزة محشوة بتلك الحروف بأنوار المعانى ثم أنزلها برحمته تنزيلا متضمنا وحيه فيها المنن واللطائف لإبراز المكنون والعطف على أحبابه، والفرائض والحدود للعبادة، والنذارة والبشارة للمعونة، والهدى والبيان الشافى لما فى الصدور من سقم النفس لاتخاذ الحجة»[2].

ولعله مما يجب أن يتنبه له الدارسون، ويفطن إليه الباحثون «أن الحكيم الترمذى لم يلتزم منهجا واحدا فى تفسيره للقرآن الكريم فالمتتبع لما جاء عن الحكيم فى التفسير يرى أن له أكثر من منهج وان كان الاتجاه الصوفى يغلب على أكثر ما كتبه فى حقل التفسير.. فهناك التفسير الظاهرى الذى جرى عليه أكثر المفسرين، ويمثل هذا المنهج فى أثار الحكيم الترمذى، تفسير الآيات التى تناولها، وهناك التفسير الذى يركز على المعنى الباطن لكلمات القرآن الكريم، معتمدا على أن لكل كلمة من القرآن ظاهرا وباطنا.. وهناك التفسير القائم على استنباط أسرار الحروف التى

(١) سورة المائدة، الآية رقم ١٥

(٢) الحكيم الترمذى «مخطوط الأكياس والمغترين» ص ٥٩، ٦٠ المكتبة الظاهرية بدمشق، منه صورة بمعهد المخطوطات رقم ٣٥١ تصوف.

تتألف منها الكلمات .. هذه هى الاتجاهات العامة التى نجدها مبثوثة فى رسائل الحكيم وكتبه فى التفسير.. وهناك إلى جانب ذلك اتجاهات خاصة»[١].

ولايخفى أن هذه الاتجاهات ترجع إلى تذوق الحكيم لمعانى القرآن الكريم، والوجدان الدينى الذى يحس به ، مما جعله يتنقل من الموضوعية إلى التجربة العندية بالمشاهدة الروحانية من الباطن، بحيث يمكن أن نقول أن هذه التجربة والمشاهدة قد أصبحت لدى الحكيم هى الأصل المعتمد فى استنباط المعانى من القرآن..

«ولذا نجد أن الحكيم ينقض فكرة الترادف[٢] فى الألفاظ ويرفضها رفضا قاطعا، معللا ذلك بأن اللفظ إذا كان مرادفا للفظ آخر، أدى إلى الاختلاف فى الفهم، فقد يعلم الإنسان لهذا المعنى لفظا، ويعلم الآخر لفظا آخر، فيختلف الفهم»[٣].

وإذا كان بعض العلماء يرى أن الترادف يوسع دائرة التعبير، ويسهل مجال النظم والنثر، بالإضافة إلى أنه يعمل على تأدية المقصود بإحدى العبارتين عند تساوى الأخرى «فإن الحكيم يرفض هذا، وينهج نهجا خاصا، يعرض فيه لطائفة من الألفاظ والعبارات التى يقال بترادفها، وذلك ليثبت نقيض ذلك»[٤] وتقوم فكرة تأليفه لكتاب «الفروق ومنع الترادف» على أن الترادف بالذات أمر مستحيل بين لفظتين.. ولاشك أن الكتاب شاهد صدق على المجهود الذى بذله الحكيم للاستفادة من معطيات التحليل النفسانى واللغوى لدعم هذه القضية. «لقد كان الحكيم بارعا فى النفسانيات وعلى معرفة متعمقة واسعة باللغة وأسرار بيانها. لذلك جاءت القاعدة التى يبنى عليها نظريته فى منع الترادف تقول: يقال فى لفظتين أنهما مترادفتان إذ تدلان على عمل متشابه فى الظاهر، لكن الصحيح أن بين اللفظتين خلافا لايمكن إدراكه إلا بتجاوز الظاهر إلى الباطن، أى إلى المصدر النفسانى الذى عنه ينبعث

---

(١) الدكتور الجيوشى، الضياء ع ١٣، ص ٩ . ٩س ٤ دبي الإمارات العربية.

(٢) الترادف هو دلالة عدة ألفاظ على معنى واحد كالحنطة والبر والقمح للحبة المعروفة.

(٣) الاستاذ حسنى نسر «تحصيل نظائر القرآن» ص ١٤.

(٤) المصدر السابق ص ١٤.

العمل، على أن لهذا المصدر وجهين: أنه القلب الذى يولد الأعمال الصالحة من وجه، ومن الوجه الآخر أنه النفس التى لايسعها مادامت سقيمة إلا أن تولد أعمالا ناقصة. ومن الشواهد على ذلك فيما يقول الترمذى: هو التشابه فى الظاهر بين الحركات التى تنصاغ فيها «المداراة» و«المداهنة» فإن هاتين اللفظتين تعنيان كلاهما: المعاملة باللطف والوداعة، لكن بينهما تباينا فى الباطن أى فى النية فإن صاحب «المداراة» صادق مخلص فى تلطفه، على حين أن صاحب المداهنة متملق مغرض.

والحكيم الترمذى لم يقف عند هذا الحد. بل راح يوضح أن الأسماء والألفاظ سمات المدلولات والحقائق. ويجب أن يكون هناك عامل مشترك ثابت بين صور اللفظ المتعددة. فاللفظ مهما تعدد معناه، فمرجعه إلى حقيقة واحدة تلك هى الفكرة الرئيسية التى قام عليها تأليفه لكتاب «تحصيل نظائر القرآن»[1]. والذى يثبت فيه الحكيم: أن الترادف وان وقع بين ألفاظ فلانها تدل على حالة نفسية واحدة تختلف بين وقت وآخر. فلم يعد اختلاف الوجوه بعد ذلك مأخوذا من مجرد اللفظ بل من علاقة ذلك اللفظ بالنفس التى تخلع هى عليه معانيه..

ويبدو أن الحكيم الترمذى قد وقع فى يده كتاب «الوجوه والنظائر» الذى وضعه مقاتل بن سليمان. وخص فيه لفظة «الوجوه» بالألفاظ ولفظة «النظائر» بالآيات. وهذا يعنى أنه بين لكل لفظة قرآنية الوجوه المختلفة التى وردت عليها فى الآيات. فتصبح هذه الأخيرة ان وردت فيها اللفظة الواحدة بوجه واحد هى النظائر[2].

وكان مقاتل بن سليمان يذهب إلى منهج ثلاثى الوجوه، أما الوجه الأول فهو قراءة النص بحرفه ولفظه لاستخراج ماينطوى عليه هذا الحرف واللفظ من معنى معين وضعى مباشر.. وأما الوجه الثانى: فهو أخذ النص بقراءة تاريخية أى برده إلى القرائن التاريخية التى اكتنفت تنزيله أو سببته.. وأما الوجه الثالث: فإنه حمل

---

(١) انظر: الاستاذ حسنى زيدان، «تحصيل نظائر القرآن» المقدمة ص ١٤.

(٢) انظر : بولس نويا «التفسير القرآنى والمصطلح الصوفى» ص ٥٢.

النص على معنى رمزى إشارى[1]. وفى كتاب «الوجوه والنظائر» بعض التأليف بين القراءة باللفظ، والقراءة بالتاريخ، والقراءة بالرمز والإشارة. وهذا التأليف يقوم على مجرد ترادف الألفاظ القرآنية فقط..[2].

وإذا كان صاحب كتاب «الوجوه والنظائر» لايرى أن اللفظ يرد على وجوه كثيرة متباينة فهو فى مكان بمعنى، وفى آخر بمعنى، وفى ثالث بمعنى.. وهكذا، مثلا كلمة الذكر تأتى مرة بمعنى الصلاة، وبمعنى الخير، وبمعنى الوعظ، وبمعنى الشرف، وبمعنى القرآن.. فإن الحكيم الترمذى يرى: «أن هذه المعانى جميعا، وتلك الوجوه المتعددة فى الظاهر إنما مردها أصل واحد، تنشعب عنه، وترد إليه[3] فكلمة «الذكر» هذه إنما مردها إلى أصل واحد، ثم تشعبت هذه الوجوه عنه[4] فإن كان للفظة القرآنية الواحدة وجوه متعددة من المعانى، فذلك عائد إلى تعدد الأحوال فى النفس باختلاف الظروف والأوقات. ويعنى ذلك مثلا: أن الألفاظ الشارحة الثمانية عشر التى تذكر للفظ «الهدى» فى القرآن على أنها مرادفة له، لاتدل أصلا إلا على معنى واحد تشير إليه لفظة «الميل» وحدها، أما المعانى المتعددة التى تؤخذ عليها كلمة «الهدى» فإنما ترتد إلى إطلاق هذه الكلمة على الأحوال النفسية المختلفة»[5].

لقد قام الترمذى اذن فى كتابيه «منع الترادف» و«تحصيل نظائر القرآن» بعمل واحد ذى وجهين: فبيّن أولا كيف تحل وحدة الترادف بين الألفاظ لتكشف عن فروق هذه الأخيرة. ثم ثانيا كيف ترتد كثرة المعانى فى اللفظ الواحد إلى كثرة تساويها من ألفاظ لاتتألف إلا بعد تطبيقها علىماينشأ فى النفس ما أحوال. ثم أن النفس

(١) راجع : فريد جبر «التصوف والاستشراق» ص ٥٥ من مجلة «الباحث» العدد رقم ١٠ السنة الثانية ، فرنسا.
(٢) المصدر السابق، ص ٥٥.
(٣) الاستاذ حسنى زيدان مقدمة «تحصيل نظائر القرآن» ص١٤، ١٥.
(٤) الحكيم الترمذى «تحصيل نظائر القرآن» ص ٥١ - ٦٧، وانظر المقدمة أيضاً.
(٥) الحكيم الترمذى «تحصيل نظائر القرآن» ص ١٩ - ٢٤.

هى التى توحد بين ذلك كله وتتيح لنا تصنيفه بالرجوع إلى التجربة والمشاهدة من الباطن.[1]

لقد تمكن الحكيم من الجمع بين مقياس النفس واللغة، حيث أخذ اللغة قواعدا وفنونا وصهرها فى بوتقة التجربة الدينية بالمشاهدة من الباطن وفى ضوء هذا عالج الترمذى معانى ألفاظ بقاعدة الوجوه والنظائر، ونخص بالذكر ما تناوله الحكيم بتحليله وكان متصلا بالتصوف مثل ألفاظ : الهدى، والكفر، والشرك، والمرض، والشئ السوء، والذكر، والخوف، والرجاء، والصلاة، والروح، والوحى، والقنوت، والصلاة، والطهور، والظن، والحكمة، والظلم، والتأويل، والدين، والإسلام، والإيمان، والشهيد »[2].

ان الحكيم يعتمد عملا ذا وقتين : وقت أول يرد الحكيم فيه تلك المعانى المتعددة إلى وحدة نفسية هى أصلها، ثم فى وقت ثان يبين كيف تتفرع تلك الكثرة فى الوجوه عن ذلك الأصل أو ترتد إليه. وللقيام بهذا العمل لجأ الترمذى إلى طريقتين متداخلتين متساوقتين، فإنه تارة يستخدم التحليل اللغوى الذى مكنه منه اطلاعه الواسع على اللغة العربية وأسرار بيانها ثم أنه تارة أخرى يتصرف بالمعطيات المباشرة التى تمده بها تجربته السلوكية فى الطريق إلى الله.وبهذا كان عطاء الحكيم كبيرا..

---

(١) الأب فريد جبر «التصوف والاستشراق» ص ٥٨م الباحث، ع٠١٠، س ٢ بيروت.

(٢) الحكيم الترمذى «تحصيل نظائر القرآن» تحقيق الاستاذ حسنى محمد زيان، ط السعادة.

المبحث الثانى

جهود الحكيم فى الفقه وموقفه من الفقهاء

الحكيم الترمذى يقرر فى كتابه «بدو شأن أبى عبدالله» أنه كان مهتما بدراسة علم الآثار وعلم الرأى «علم الحديث وعلم الفقه» وإنه تلقى هذين العلمين على علماء عصره، وكبار الشيوخ فيه.

«وكان علم الرأى ينطلق أول ماينطلق فى الفقه على مذهب أبى حنيفة، وكما درس الحكيم الترمذى علم الرأى فقد درس كذلك علم الآثار.. ولأهل الحديث موقف بالنسبة للأحكام الفقهية يختلف مع موقف أهل الرأى. فماذا كان موقف الحكيم وقد جمع بين دراسة علم هؤلاء وهؤلاء؟ »[1].

«ان المعرفة عند الحكيم لابد أن تنعكس آثارها على منهج العالم وسلوكه، والعلم النافع هو الذى يهدى صاحبه إلى الطريق الموصل إلى الله سبحانه وتعالى ومعرفته»[2].

والمحدث الكامل هو الذى يتلقى الحديث بقلب واع يكشف وجوه المعانى والتأويل، ويقوم بتفهم الحديث وتفسيره، واستنباط مايمكن استنباطه منه بعد معرفة الخاص والعام والناسخ والمنسوخ، وما شاكل ذلك فمن يكون هذا؟ أليس هو الفقيه؟ وأى فقيه هو؟ أليس هو الفقيه على طريقة أهل الحديث؟[3].

يرى الحكيم الترمذى: أن الفقه هو معرفة الشئ بمعناه الدال على غيره، والعلم هو تجلى الأشياء له بنفسها، ولذلك يوصف الله تعالى بالعلم ولم يوصف بالفقه[4].

---

(١) انظر الدكتور بركة «الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية» جـ ١، ص ٨٤.

(٢) انظر الدكتور الجيوشى «الحكيم الترمذى دراسة لآثاره وأفكاره» ص ١٧٨.

(٣) انظر الدكتور بركة «الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية» جـ ١، ص ٨٤.

(٤) الحكيم الترمذى «أنواع العلوم» مخطوط ورقة ٦٦.

والذى يفهم مراد الله فى الأشياء حسب مايمنحه من توفيق فى تعظيم أمره سبحانه واجتناب نهيه، هو الفقيه فى أصول الدين وفروعه»[١].

ويقول الحكيم الترمذى: وليس كل من يكون فقيها فى الفروع فقيها فى الأصول، لأن الفقه فى علم الأحكام كثير وهو فقيه بالتفقه وهو حامل الفقه والعلم.. والفقه اسم للعلم يعبر بهذه اللفظة عنه، يقال فلان يتفقه ويتعلم، وأما الفقه فى الحقيقة فهو فقه القلب، وفقه المتعلم بوضعه فى باطن الصدر، ويزداد نوره بالتعلم والاستعمال، ويتفرع له أنواع الفقه والفهم، فيستنبط بنور فقهه مسائل ويقيس ما لم يعلم بما يشبهها ويشاكلها ويقرب من معناها. وأما الفقه فى الدين فهو النور الذى يقذف الله تعالى به فى قلب عبده المؤمن مثل السراج يبصر به ولايكون ذلك للكافر والمنافق.

فأما استنباط الفقيه فى الأحكام فهو استنباط المسائل على موافقة السنة وإقامة الشريعة. وأما استنباط الفقيه فى باطن العلم. فهو استنباط الخواطر على موافقة الحقيقة، ومشاهدة الربوبية، وإنما نتبين زيادة الفضل بينهما فى استنباط معنى فى الباطن والظاهر لآية قد أنزلها الله تعالى يوجب ظاهرها حكما، ويكون تحت ظاهرها من العبارة التى فى باطنها إشارة وعلم. فيستنبط الفقيه مايوافق حجة الله تعالى، ويستنبط الحكيم مايوافق مراد الله تعالى، ويهدى إلى محجته بما تبين من لطائف الإشارات موافقا للتوحيد ومخبرا عن مراد يوافقه الحميد..[٢].

وخلاصة ذلك كما يذكر الدكتور بركة أن لفظ «الفقه» عند الحكيم يطلق بمعنيين.

الأول : بمعنى علم الأحكام، والفقيه بهذا المعنى هو الذى يتعلم هذا العلم ويحمله، فهو متفقه، وهو فقيه بالتفقه، وهو حامل الفقه والعلم.

---

(١) انظر الدكتور الجيوشى «الحكيم الترمذى دراسة لآثاره» ص ١٨٠.

(٢) انظر : الحكيم الترمذى «الفرق بين القلب والصدر والفؤاد واللب» ص ٧٧، ٧٨، ٧٩، تحقيق نقولا هير، ط القاهرة.

الثانى : وهو المعنى الحقيقى .. بمعنى فقه القلب أى قوة الفهم والإدراك.

والأول: يزداد نوره وعلمه بزيادة التعلم والاستعمال، ويمكن أن يطلق عليه أنه فقيه فى الأحكام، فهو قادر بنور ماحصل على استنباط مسائل وقياس ما لم يعلمه منها بما يشابهها ويشاكلها ويقرب من معناها بما يوافق حجة الله تعالى..

والثانى : يستعمل النور الذى قذفه الله تعالى فى قلبه، ويمكن أن يطلق عليه لهذا أنه فقيه فى الدين، وهو قادر على استنباط الخواطر على موافقة الحقيقة، مما قد يحمله ظاهر المسألة من إشارة وعلم فيستنبط ما يوافق مراد الله[١].

ولما كان القياس[٢] واستنباط الأحكام بهذه المثابة، فإنه ينبغى التفريق بين الطريقتين والتمييز بين النوعين. أما أن يطلق على كل منهما استنباط وقياس، فيرى الحكيم أن ذلك قد يوقع فى الخلط، ويعطى حكم كل منهما للآخر مع أن الطريقة الثانية أتم وأكمل، وهى التى ينبغى أن تعطى حكم القياس، ويوصف أهلها بأنهم هم أهل القياس.

ويوضح الحكيم وجهة نظره بشرح معنى كلمة قياس ليبين خطأ استعمالها وإطلاقها على كل اجتهاد أو رأى، فالقياس استعمل على أنه اعطاء مسألة جزئية حكم مسألة جزئية أخرى لعلة تجمعهما. ويسمون المسألة المقيس عليها أصلا، والمسألة المقيسة فرعا.

ويعترض الحكيم على الزامه هو أو غيره باتخاذ هذا الأصل الاصطلاحى أصلا حقيقيًا شرعياً. وبالتالى على إلحاق المسألة الفرع به فى الحكم[٣].

---

(١) انظر الدكتور بركة «الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية» جـ ١، ص ٥.

(٢) القياس هو حمل معلوم على معلوم آخر، لاشتراكهما فى علة الحكم مثل الحكم بحرمة غير الخمر من المسكرات على الخمر لوجود العلة وهى السكر، والقياس حجة ودليلا فى الأحكام الفقهية.
انظر : الأحكام للآمدى جـ ٣/٨١، والمستصفى للغزالى ٢/٢٨١.

(٣) انظر الدكتور بركة «الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية» جـ١، ص ٨٦.

«ويرى أن ذلك إلحاق فرع بفرع لا بأصل. وان سمى بذلك اصطلاحا لأنه مسألة جزئية شاركت أو شابهت مسألة جزئية أخرى فى ناحية من النواحى يسمونها علة فاشتركا أو تشابها فى الحكم، وليس ذلك قياسا عند الحكيم بل هو مشاكلة، شاكل فيها فرعا، وشاكلت مسألة جزئية مسألة جزئية فأعطيت حكم الأخرى مشاكلة لا قياسا. والمشاكلة لا تؤدى إلى الحكم الصحيح إلا مصادفة بخلاف القياس، لأن القياس هو أن يسوق كل فرع إلى أصله الذى أصله الله عز وجل لعباده فى المسألة التى يبحث عن حكمها لا إلى فرع آخر، أو مسألة أخرى أشبهتها عند الناظر فى العلة فاتخذت أصلا.

والمقصود بالقياس هو إصابة حكم الله فى المسألة، فإذا أعطى الفرع الحكم الذى استنبط من أصله الذى أصله لعبادة الله، فإن أصابة حكم الله حينئذ تكون باتباع هذا المنهج لابمحض المصادفة، أما إعطاء الفرع حكم فرع آخر، دون نظر إلى أصله، فقد يصيب حكم الله وقد لايصيب وإصابة الحكم حينئذ لاتكون بسبب القياس أو المشاكلة، بل بالمصادفة لأنه لا دليل على اتصال هذا الفرع بهذا الفرع إلا بوجه الشبه فى العلة حسب الظاهر، ولهذا يرد الحكيم الترمذى كثيرا من الخلط فى الأحكام إلى اتخاذ منهج المشاكلة دون منهج القياس، مع اضطراب المشاكلين واعتقادهم أنهم يقيسون أولئك هم أهل الرأى»[1].

فالحكيم الترمذى يرى أن كثيرا من الخلط فى الأحكام كان نتيجة للاهتمام بمنهج المشاكلة الذى يتخذه أهل الرأى.. لذا نراه يوجه إليهم كلاما يتسم بالشدة فيقول: «فتفقد هذا من أهل زمانك تجد هذا منهم ظاهرا، فلذلك ذلوا وصاروا عند العامة متهمين، تحلوا بالأعمال الظاهرة على الجوارح عند العامة، ورضوا فيما بينهم وبين ربهم أن يكونوا فى أخلاق الشياطين فى الباطن، وذلك مثل الغش، والغل، والحقد، والحسد، وطلب العلو، وطلب المنزلة عند الناس، وحب الجاه، والفرح بالحياة،

(١) انظر الدكتور بركة «الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية» جـ ١ ص ٨٦.

وحب الثناء المحمدة، وخوف الفقر والكيد، والغضب، وحب الرياسة والعداوة والبغضاء والطمع والرغبة والرهبة والحرص والشح والبخل والتعظيم للأغنياء والاستهانة بالفقراء من أجل فقرهم، والبذح والبطر والأثر، والتحبب إلى الناس بما يحب الله، فإذا خلا فيما يكره الله وجمع الدنيا للفخر والتكاثر والخيلاء والتنافس فى الدنيا، والمباهاة والرياء والسمعة والإعراض عن الحق استكبارا، والسفه والخوض فيما لا يعنيه، وكثرة الكلام، وفضول الكلام، وفضول الطعام، والصلف والمن والأذى، واختيار الأحوال، والتملك فى الأمور، والاقتدار فى الأمور، ونسيان النعمة وترك ذكر المنعم والعمى عن إحسان الله، وافتقاد الحزن من القلب والخشية والانتصار للنفس إذا نالها الذل، وترك الانتصار للحق، واتخاذ أخوان العلانية على عدواة فى السر والأمن، لسلب ما أعطى وترك الهدى حتى يشارك فى الأمور، والانقياد للهوى، وشهوة الكلام، والشهوة الخفية، والاتكال على الطاعات، والهرب من الذل فى هجنة من الحق وطلب العز والمكر والخيانة والمخادعة وطول الأمل والتجبر وعزة النفس وخوف سقوط المنزلة فى عيون الخلق، وذهاب ملك النفس إذا رد عليه قوله، والتماس المغالبة لا لله، والقسوة والفظاظة وغلظ القلب، وغيظ النفس والغفلة والركون إلى الدنيا، وسوء الخلق، والفرح بالدنيا، والحزن على فواتها، والأنس بالمخلوقين والدهشة إذا عجز عن رؤيتهم، والمران فى الكلام والجفاء والطيش والعجلة والخفة والحقد والدهاء والجربذة، وقلة الحياء، وقلة الرحمة»[1].

ولا يخفى على أهل العلم أن نقد الحكيم لهؤلاء موجه لأهل الرأى فى عصره، لأنه أدرى بهم، وبسلوكهم.. ونرى أن الحكيم لم يقبل الحيل والمخارج التى اعتبرها أهل الرأى فقها، وما هى إلا مشاكلة لاتتفق مع منهج القياس الذى يضع القضايا الفقهية فى موضعها الصحيح ولا يزال الحكيم يكشف فى وضوح عن أمثلة من

(١) الحكيم الترمذى «الاكياس والمغترون» ورقة ١٤٨، ١٤٩، ١٥٠ مخطوط معهد المخطوطات، صورة من المكتبة الظاهرية بدمشق.

احتيالاتهم فيقول: «ومن ذلك الاحتيال فى إبطال الشفعة والاحتيال فى إبطال الحقوق التى يخاف لزومها اياه. فذهب المغتر فنصب له حيلة من طريق العلم على مخاتلة وتمويه أن يشترى جزءا من أجزائها بأكثر الثمن الذى سمى حتى يصير شريكا، ثم يشترى الأجزاء الباقية بشئ قليل حتى يعجز الشريك الآخر عن ذلك الثمن الذى أدى فى الجزء الأول، فهذه حيلة أصحاب السبت الذين قيل لهم كونوا قردة خاسئين، حيث نهوا عن العمل يوم السبت فهيأوا قبل يوم السبت حظائر على السواحل حتى جاءت الحيتان يوم السبت، فدخلوا الحظائر، فسدوا الحظائر، وقالوا إنما نهينا عن الصيد وليس هذا باصطياد، فمسخوا قردة بما خادعوا الله. قال الله تعالى: «فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ»[1] ليعظ المتقون من أمه محمد صلى الله عليه وسلم عن مثل هذه المخادعة»[2].

«ومن ذلك هذه الأشربة الخبيثة التى إنما حرمت لذهاب العقول، وسكر الصدور، وشره النفس، وظهور الفساد فى الأرض. فذهب هذا المغتر فعمد إلى عصير فطبخه حتى إذا بلغ مبلغًا من الطبخ غلظ عليه، وذهبت شدته، نبذ عليه الماء حتى رق بعد أن كان غليظ حتى عاد لشدته ثم غلا غلية، ثم قال قد طبخناه على الثلثين وانتهينا إلى الحد المحدود وهذا نبيذ، وإنما يسكر كثيره ولايشرب منه إلا بمقدار لايسكر. وإنما حرمت الخمور والخمر هو نئ وهذا طبيخ، فتراهم سكارى مع الهذيان بوالين فى الاسكة يتلوثون فى القئ يقولون ليس هذا بمسكر ويرون أحاديث كلها من طريق المفتونين»[3].

وللحكيم الترمذى كتاب سماه كتاب «العلوم» ألفه فى مناقضة الفقهاء وخدعهم وحيلهم وقد ورد ذكر هذا الكتاب فى كتاب «الأكياس والمغترون» وهو نقد لمنهج

---

(١) سورة البقرة، الآية ٦٦.

(٢) الحكيم الترمذى «الاكياس والمغترون» ورقة ١٣٠، ١٣١، ١٣٢، مخطوط، معهد المخطوطات العربية.

(٣) الحكيم الترمذى «الاكياس والمغترون» ورقة ١٣٢، ١٣٣، مخطوط معهد المخطوطات العربية.

الفقهاء على ضوء المنهج الذى يدعو إليه الترمذى. يقول الحكيم: «ولنا فى هذا كتاب سميناه «كتاب العلوم» ألفته نقضا على هؤلاء المخادعين من أصحاب الحيل الذين يحتالون بما يبطلون به أحكام الدين، يريدون أن يتخلصوا بحيلهم من أحكام لزمتهم.. ويقولون أن هذه أحكام لم تلزمنا فنحن نحتال فتقر من لزومها، فيقال لهم قد تسترتم بهذه الكلمة وهذه أشياء قد خلطموها فلبستم على أنفسكم مالزمكم بما لم يلزمكم»[١].

فالحكيم الترمذى يأخذ على هؤلاء أنهم يحتالون بالعلم ليفروا من بعض الأحكام، ثم يلتمسون لأنفسهم عذرا بعد ذلك بأن هذه أحكام لم تلزمهم.

ولاشك أن الترمذى لم يقر هؤلاء على ماكانوا عليه، بل وقف يأخذ عليهم:

* مخادعتهم لأنفسهم فى المنهج العلمى بالاحتيال..

* تخلصهم من بعض أحكام الدين التى لاتجرى على هواهم.

وهم فى هذا وذاك إنما يحكمون فى الدين برأيهم وهواهم، ويغفلون عما وضعه الله فى ذلك من حكمة الشريعة.. هذه الحكمة التى تغيب عن أهل الرأى لأنها لاتتوافر إلا لمن يعنى بعلوم الحكمة والمعرفة، وهى من علوم الباطن، وليست من علوم الظاهر[٢].

وأهل البحث فيما كتبه الحكيم فى شئون الفقه والفقهاء يرون : أنه لم يغفل تعليل اندفاع أهل الرأى فى المخادعات والحيل والمخارج التى جاءوا بها، ويرجع الترمذى ذلك إلى ثلاثة أمور ، لهذا مافتئ ينفذ هذه الأمور أمرا أمرا..

١ ـ الأمر الأول من هذه الأمور الفقه نفسه، لأن موضع الفقه ـ كما يرى الحكيم ـ لايربى فى الفقيه ضميرا، ولا يبعث فى النفس ورعا[٣].

(١) الحكيم الترمذى «الاكياس والمغترون» مخطوط ص ١٥، ١٦.

(٢) انظر الحسينى «نظرية المعرفة عند الحكيم الترمذى» ص٩٢.

(٣) المصدر السابق ص ٩٢.

قال الحكيم الترمذى فى المسائل المكنونة تحت عنوان:« أصحاب الفقه وأهل الحديث» :قال له قائل: نرى صنفين فى هذا الدين صنف ينتحلون الفقه وعلم الرأى، وصنف ينتحلون الحديث، ونلاحظهما فنرى أصحاب الرأى أكثر تهافتا وزللا، وأقسى قلبا، وأخشن جانبا، وأكثر تناظما وتحاسدا من أهل الحديث، فمن أين هذا؟.

قال : أن هذه الشهوات فى النفوس عاملة، وللقلوب عن الله شاغلة وللأرواح مثقلة. فهى محتاجة إلى الوعظ ،وأن أصحاب الرأى من لدن أن بدا أحدهم فى تعلمه إلى أن يفارق الدنيا إنما يجرى على سمعه خدائع الناس ومخاتلاتهم، وجناياتهم بعض على بعض.. فهم الشهر والدهر فى ذكر تلك الأشياء، كيف يردونها إلى الأصول التى فى أيديهم من عدل الله وحكمه، فانظر فى علمهم الذى قيدوه فى كتبهم من علوم الأحكام أحسبه يقع فى أكثر من ألف مجلد.. فهل ترى فى شئ منها ذكر المعاد وصفة الجنة والنار وصفة الموت والبرزخ، ومافيه من الأهوال وصفة القيامة وأهوال الموقف وشدة الحساب وقطع مسافة النار على دفة الصراط، ووزن الأعمال، وصفة خوف الخائفين، وشوق المشتاقين، وخشية العلماء بالله، وصفة المتقين والورعين، وصفة الزاهدين والراغبين ومنازل الدين، ومكايد النفس والعدو والهوى، وصفة الأكياس والمغترين، وحكمة القرآن ولطائفه وبواطنه وعجائبه، ومحاسن أخلاق الكرام فى الدين وأخلاق رسول الله ﷺ، وشمائله وأخلاق أصحابه، وسيرتهم من بعده، وجدهم واجتهادهم وصدقهم ووفائهم وبذلهم نفوسهم لله، وأخبار الأمم السالفة، وما أعطيت الأمم ومافضلت به هذه الأمة، وذكر منن الله وإحسانه والنظر فى تدبير الله وعجائبه وغرور الدنيا وزينتها وأخبار بنى إسرائيل وعجائب كتبهم المنزلة عليهم، وعقبى أمورهم كيف عاملوا؟ وكيف عوملوا، وبماذا حبينا من الكرامات[1].

وبعد أن يذكر الحكيم هذه الأمور التى تبعث على الصلاح والورع والتقوى، ويبين

---

(١) الحكيم الترمذى، كتاب «المسائل المكنونة» ص ٤٦، تحقيق الدكتور الجيوشى، ط دار التراث العربى.

أن ماكتبه أهل الرأى بعيد عن هذه المعانى، يقول: «فأهل الرأى خلو من هذا العلم كله. إنما استماعهم بالآذان وفكرهم بالقلوب فى خصومات النفوس وشرهم ومكرهم وخدائعهم وأحداثهم، وخياناتهم مايوجب الحكم عليهم فى ذلك ومايحل لهم، ومايحرم عليهم، فإذا علموا هذا نظروا إلى حاجة الناس إليهم فى ذلك، واضطرارهم إليهم ليلا ونهارا خضوعا لهم وانقيادا لأمرهم وتعظيما لهم ولم يجر على أسماعهم مايجرى على أسماع أهل الحديث مما ذكرنا من هذه العلوم..

فرحت نفوسهم بما أوتوا من العلم، وبطرت بما نالت من العلو والتعظيم، فتلظت شهوات نفوسهم كالحريق فى أجوافهم، وانتضخ الكبر فى صدورهم، حتى صير أحدهم عند نفسه كجبل شامخ، ذاهبا بنفسه، وهاج الحرص والحسد، فتنافسوا وتناطحوا على العز والرياسة شحا وأسفا على قوتها، حتى أداهم ذلك إلى مشاركة الملوك فى ملكهم، فصدقوهم بكذبهم وأعانوهم على ظلمهم، وزينوا لهم سوء فعالهم، وهدوهم من الشر ما لم يهتدوا إليه.. وقبلوا من الملوك، وأحبوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا فوعدهم العذاب فنظرنا إلى هؤلاء المتفقهة تكلفا فوجدناهم إنما أوتوا من أن الأسماع خلت عن أن يجرى عليها ذكر المعاد، وذكر ماله خلقوا.

والأشياء التى ذكرنا بديا من علم عظمة الله وربوبيته، وعلم التدبير والمنن، والإحسان، وعلم دواهى النفس، ومكايد العدو، وعلم الصدق والصفاء، والإخلاص عبودة.

وخلت القلوب من الفكر فيها حتى تشتمل عليها أحزان العقبى، فتذهل النفس عن دواهيها، فاستبدلت القلوب بذلك فرحا والنفوس بطرا، والأركان بطالة وشبقا تتلمس أفراحها وتذوق طعمها»[1].

---

(١) الحكيم الترمذى، «المسائل المكنونة» ص ٤٧، ٤٨.

٢ ـ والأمر الثانى من هذه الأمور: «متصل بمنهج الفقهاء الذى اصطنعوه لأنفسهم وساروا عليه فى استنباطهم، وذلك أنهم عمدوا إلى نوع من المشاكلة بين الفروع فسموها قياسا ووقفوا عندها، وهى بعيدة كل البعد عن القياس، إنما القياس لايكون لأهل الرأى ولا لعلماء الظاهر .

وهذه التفرقة بين القياس والمشاكلة توضح لنا الفرق بين المنهج الذى يدعو إليه الترمذى، وبين منهج أهل الرأى يومئذ»[١].

يقول الحكيم الترمذى فى تصوير الفرق بين منهج أهل الرأى ومنهجه الذى يدعو إليه:«فالمقايسة لعبد طالع أصول الحكمة بنور الفراسة، فلما وردت عليه الفروع عرف كل فرع منها ما أصله ومن أين تفرع هذا فساقه إلى أصله، فهذا مقايس، وفى اللغة قاس وساق بمعنى واحد إلا أن هذا مستعمل فى نوع وذلك فى نوع ومثل هذا كثير كقولهم: مدح وحمد وشكر، وكشر، وعلم ، وعمل، فالعلم فى الصور علامة ما فى القلب والعمل بالجوارح علامة ما فى الصدر، فكلاهما علامة. وكذلك قوله: قاس وساق، فالسايق يسوق هذا الذى قد شذ عن نظرائه إلى معدنه فالقايس يقيس هذا الفرع الذى تفرع من أصله، فبداها هنا شاذ إلى أصله ومعدنه بمنزلة شجرة كرم لها أصول وقد كثرت فروعها فليس كل من نظر إلى تلك الفروع مشتبكة بعضها ببعض، يحسن أن يؤدى كل فرع إلى أصله فمن لم يعرف الأصل لم يقدر على الحكم فى رد هذا الفرع إلى أصله من بين الأصول.

فالقياس هو السياق أن يسوق كل فرع منها إلى أصله الذى أصله الله عز وجل لعباده من الحكمة البالغة الباطنة لا الحكمة الظاهرة.. والمشاكل رجل نظر فى الأصول المرسومة فى التنزيل والمسنونة فى القدوة. فإن القائد ﷺ قد مر بقيادته سائرا إلى الله عز وجل، وأمر أتباعه فسن لنا القدوة وما إن تمسكنا به كنا تابعين

---

(١) انظر عبدالمحسن الحسينى «نظرية المعرفة عند الحكيم الترمذى» ص ٩٤.

له. وترك العهد الذى فيه رسم الأصول بأيدينا، لم يبدل ولم يغير بحمد الله ونعمته، لننظر بهذا النور المشرق فى صدورنا فلما وردت هذه الفروع شاكل بعضها بعضا أى فرع أقرب شبها ببعض هذه الفروع، فألحقه به لما رآه شكله، فهذا ليس بقايس، هذا مشاكل. إنما القياس أن يقيسه أى يسوقه حتى يرده إلى أصله الذى منه تفرع فمن هنا كثر التخليط فى هؤلاء المتفقهة، يلحقون الفرع بالفرع فيحكمون حكمه فإذا قيل من أين؟ قال : قسته، فإذا قيل على أى شئ قسته فيجئ بفرع آخر، فيقال هذا فرع، فقل شاكلته، ولا تقل قسته، فإنه لايلزمنى تشبيهك ومشاكلتك حتى تقيس وترده إلى أصله لأنه إنما لزمه من الأصل بالكتاب والسنة. فإذا اسقت هذا الفرع حتى تلحق بالأصل فقد لزمنى كما لزمنى الأصل.. فأنت مشاكل أخذت بمعرفة هذا الأمر من الوسط لا من أصله، والأصل هو الحق والعدل، ولم ترفع معرفتك من الحق والعدل ولا من التنزيل نصا إذا لم يكدر لك حظ من العدل والحق»[1].

ولايخفى أن المتتبع لعبارات الحكيم فى هذه النصوص يجد أنه موضوعيا فى نقده وحياديا، كما كان إيجابيا وليس سلبيا، فهو يقدم البديل الذى يراه صحيحا للفكرة التى تتهافت أمام نقده، يدفعه إلى كل ذلك نزعة دينية عملية، هذه النزعة هى العلة المحركة ونقطة الانطلاق التى من أجلها اتجه كل هذه الاتجاهات.

ولذلك كان القياس عند الحكيم هو سوق الفرع إلى الأصل، أو بعبارة أخرى الوقوف على الأصول والعلم بها، وأما مايفعله بعض الفقهاء فإنه معرفة للأمور من الوسط دون الأصل:«أخذت بمعرفة هذا الأمر من الوسط لا من أصله، والأصول هذه التى لايكون قياس بدونها التى يجب الوقوف عليها هى الحق والعدل» والأصل هو الحق والعدل. وهذا الحق والعدل هو مايخلو منه قياس الفقيه واستنباطه[2].

«ولم يترك الحكيم الترمذى هذه المسألة بغير أن يضرب لها أمثلة فقهية توضحها

---

(١) الحكيم الترمذى «الفروق ومنع الترادف» ، ومخطوطة ٩٦٨ ب معهد المخطوطات العربية.

(٢) انظر الحسينى «نظرية المعرفة عند الحكيم»، ص ٩٥.

وتبين بطريقة عملية الفرق بين المشاكلة والقياس، وأن الاختلاف الذى ينشأ بين ما يسمى بالقياس وما يصل إليهم من الأثر الصحيح إنما هو بسبب خطأ القائس وعدم اتباعه النهج الصحيح فى القياس، فهو يشاكل ويظن أنه يقيس، ولو أنه قاس قياسًا صحيحًا ولم يشاكل لما اختلف الحكم الناتج من القياس عن الحكم الذى يصلنا عن طريق الحديث الصحيح وبذلك تصان أحكام الشرع عن أن تكون مظنة للتضارب أو التعارض عند هؤلاء الذين يعتدون بعقولهم وقياسهم أو عند من يتابعونهم بغير علم»[1].

ويذكر الترمذى أمثلة لهذه المشاكلة التى وقع فيها أهل الرأى وادعوا أنها نوع من القياس ومن هذه الأمثلة، رأى أبى حنيفة فى افتتاح الصلاة بالتحميد أو بالتهليل أو بالتسبيح بدل التكبير.[2]

ورأى أبى حنيفة فيمن قرأ بالفارسية فى صلاته[3].

ورأى أبى حنيفة فى الصائم إذا أكل ناسيا[4].

وأننا نرى أن الحكيم الترمذى قد ساق أمثلة كثيرة ليوضح منهج الفقهاء فى المشاكلة التى ادعو أنها قياس، وكانت تفقد أهم أركان القياس عند الحكيم. ومن أهم أركان القياس الوقوف على الأصل دون الوسط وسوق الفرع إليه.

وقد اكتفينا بذكر الأمثلة التى أوردناها، وسنتناول واحدا منها يتضح به مراد الحكيم الترمذى فى مناقشة أهل الرأى، يقول الدكتور بركة:

من ذلك مايرويه الحكيم عن يعقوب عن أبى حنيفة أنه قال فى الصائم إذا أكل

---

(١) انظر الدكتور بركة، «الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية»، جـ ١، ص ٨٧، ٨٨.

(٢) الحكيم الترمذى، «الفروق ومنع الترادف» مخطوط ص ١٠٣.

(٣) المصدر السابق ص ١٠٣.

(٤) الحكيم الترمذى «الفروق ومنع الترادف» ورقة ١٠٣ صورة بمعهد المخطوطات.

ناسيا: «لولا الأثر لقلت بالقياس أنه يفطر»[1] ويعلق الحكيم على قول أبو حنيفة بقوله: ليس ذلك قياسا إنما هو مشاكلة، والقياس أنه لايفطر، ولو لم يجئ أثر لكان أهل القياس يردونه إلى الأصل فلا يحكمون عليه بالفطر[2].

يقول الدكتور عبد الفتاح بركة عارضا لهذه القضية وموضحا حيثيات الحكم فيها «فماذا كان قياس أبى حنيفة؟ لقد شبهه بالذى يتكلم فى الصلاة ناسيا فتبطل صلاته، والذى يجامع فى إحرامه ناسيا فيفسد حجه، وأشباه ذلك مما لايعذر فاعله فى نسيانه، ولما كان الصوم عبادة كهذه العبادات فإن القياس أن يبطله إتيان ماينافيه نسيانا ولايعذر فاعله فى نسيانه، كما أبطلنا الصلاة والحج بإتيان ماينافيهما نسيانا. لكن ورد الأثر الصحيح بحكم يختلف، فلم يبطل صيامه، بل أجازه وقبله ولا رأى مع النص الصحيح.. إلا أن أبا حنيفة يظل مقتنعا ان الأثر يخالف القياس، وأن القياس صحيح وإن خالفه الأثر، وأنه يتنازل عن القياس للنص تنازلا، فالصلاة عبادة، والصوم عبادة، والكلام العادى فى الصلاة ينافيها، والأكل فى الصيام ينافيه، فإذا وقع الكلام فى الصلاة عمدا أبطلت الصلاة، وإذا حدث الأكل أثناء نهار الصوم عمدا بطل الصوم وإذا وقع الكلام فى الصلاة نسيانا بطلت الصلاة. فالقياس اذا حدث الأكل أثناء نهار الصوم نسيانا أن يبطل الصوم، حيث تشابهت المسألتان من كل ناحية، وليس هناك مانع من طرد الحكم[3].

وبعد أن يفيض الدكتور بركة فى بيان قياس أبى حنيفة يمضى بنا قائلاً: «فهل هذا هو القياس كما يراه الحكيم؟ هل ساق أبو حنيفة المسألة إلى أصله واقتص الأثر إلى هذا الأصل ليعرف حكم الله فيه؟ أم أنه وجد تشابها بين فرع وفرع، ومسألة جزئية مع أخرى فى علة استنبطها برأيه. فأعطى الأولى حكم الثانية بمقتضى هذا

(١) انظر الدكتور بركة «الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية» جـ ١، ص ٨٨.
(٢) راجع الدكتور بركة «المصدر السابق» جـ ١، ص ٨٨.
(٣) راجع الدكتور بركة «الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية» جـ ١، ص ٨٨.

التشابه؟ ذلك هو ما وقع، وذلك لايسمى قياسا عند الحكيم، بل يسمى مشاكلة لأن كلا من المسألتين شاكلت الأخرى فى بعض وجوه الشبه، وذلك لايمنع أن يكون أصل الواحدة بينهما مخالفا لأصل الأخرى، فلا يصح أن يشتركا فى الحكم من أجل ذلك[1].

«فما القياس فى هذه المسألة كما يراه الحكيم؟ يرى الحكيم أن الصوم هو نذر لزمه الوفاء به لربه عزوجل، والرزق مقسوم فى اللوح مرسوم بصفته، مقدر فى يومه، مساق إليه، قد حتم رب العالمين الوفاء به للعبد، فالعبد مطلوب فى ذلك الوقت لوفاء نذره الذى سبق منه، ومطلوب باستيفاء رزقه الذى له فى ذلك الوقت، فالتقى الطالبان، والتقى الوفاء أن ولابد من أن يطلب أحدهما صاحبه، فلطف الله تعالى فأنساه نذره، وتولى طعمته، وعذره فى نسيانه، لأن ذلك النسيان من الله»[2].

وبعد هذه الرؤية الواضحة ينطلق الباحث عن المعرفة يريد أن يدرك مزيدا عن أصل المسألة عند الحكيم، وهنا نجد الدكتور عبد الفتاح بركة فى كتابه:«الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية» يقول:«فالحكيم الترمذى يرى أن أصل المسألة فى الأكل ناسيا أثناء الصيام يختلف تماما مع أصل المسألة فى الكلام ناسيا أثناء الصلاة، أو الجماع ناسيا فى الاحرام، لأن الذى أنساه فى صيامه وجعله يأكل ناسيا هو الله عزوجل وفاء بما كتبه الله له من الرزق، من حيث امتنع العبد عن تناوله وفاء بما عليه لله من العبادة.. فلم يكن فى ذلك خارجا عن حدود الطاعة لله سبحانه وتعالى بنسيانه، وأما نسيانه أثناء صلاته وكلامه فليس من الله وجماعه أثناء الإحرام ناسيا فليس من الله، بل من الشيطان، فلم تكن العبادة خالصة من نزغ الشيطان، ومازال الشيطان يصاحبها حتى جعله يغفل عنها، ويسهو فيها، ويأتى بما

(١) راجع الدكتور بركة «الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية» جـ ١، ص ٨٩.
(٢) المصدر السابق ص ٨٩.

ينافيها، فحق إذن أن ترفض وترد وتبطل[1]، وهناك أمثلة كثيرة أوردها الحكيم الترمذى، وبيّن فيها وجه الصواب حسب المنهج الذى يسير عليه[2].

ويقول الحكيم: «والحكم الجائر هو الحكم الذى يميل والهوى المتبع هو سوء التأويل فالمعنى فى الاثنين سواء واللفظ مختلف، فهؤلاء كلهم أهل الغرور، فالعالِم لايُزل إلا بعد ما تعمى عليه النفس طريق العلم، والجاهل يقع فى الجهل، ويخطىء الطريق، والحكيم لا يميل إلى النفس وإلى الدنيا إلا بعدما عمت عليه النفس والمتأول يسوء تأويله بها بعدما يخرج العلم من تلقاء نفسه مقاييسا وظنونا كمقاييس أبليس وظنونه[3] فأبليس اللعين شاكل ولم يقس، إلا ترى أنه قال: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [4] والنار من النور، والطين من الظلمة فكيف يسجد النور للظلمة فشاكل أصل خلقته بخلقة آدم عليه السلام، فنظر إلى بياض هذه النار وظلمة هذا الطين، فضل وقد علم الخبيث أن الأرض لم تكن فكانت وأن الماء الذى خلق منه الأرض لم يكن فكان، فإنما انسد عليه الطريق ولم يبتدئ بالقياس، ولكنه شاكل ، نظر إلى طين ونار، ثم نظر إلى النور والظلمة فشاكل الظلمة بالنور فأخطأ » [5].

ويعلق الدكتور بركة على هذا النص بعد أن أورده بقوله : من ذلك نرى أن الحكيم الترمذى لا يعترض على أهل الرأى باتخاذ القياس منهجا فى الاجتهاد، ولايرى أن القياس ليس قاصرا عن الوصول إلى حكم الله، ولكن الحكيم يختلف معهم اختلافًا جوهريًا فى مفهوم القياس وكيفية استعماله[6].

---

(١) راجع الدكتور بركة «الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية» جـ ١،ص ٩٠.

(٢) ينظر كثيرا من هذه المسائل فى كتاب اثبات العلل، مخطوط ص ١٤٣، وكتاب الفروق، مخطوط ٩٣، ٩٦، وكتاب الأكياس، ١٣٥، ١٣٧.

(٣) الحكيم الترمذى «الأكياس والمغترون» مخطوط ص ٦، مكروفيلم معهد المخطوطات العربية.

(٤) سورة الأعراف الآية رقم ١٢.

(٥) الحكيم الترمذ، «الفروق ومنع الترادف» ص ٩٦، ٩٩.

(٦) انظر الدكتور بركة، «الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية» جـ١ ص ٩٢.

والمتابع لما كتب حول الترمذى ومؤلفاته يجد أن رؤية الباحثين تخالف ماذكره الدكتور عثمان يحيى فى تحقيقه كتاب «ختم الأولياء» حيث قال :«ويجب أن نلاحظ أن الترمذى يميز بين العلة والقياس، فهو يقبل الأولى ويرفض الثانية»(١).

فالترمذى لم يرفض القياس أصلا ولذلك يقول:«المقايسة لعبد طالع أصول الحكمة بنور الفراسة(٢) والمقصود بأصول الحكمة: «باطن العلم ومايحمله ظاهر العبارات من إشارات يدركها صاحب الفقه الحقيقى: فقه القلوب»(٣).

ويستحسن أن لايفوتنا أن نذكر أنه: عندما ينظر المرء إلى نقد الحكيم الترمذى لقياس أهل الرأى، وتقريره: أنه ينبغى أن يساق الفرع إلى الأصل لا إلى فرع آخر مثله، تتبادر إلى الذهن مسألة الكلى والجزئى ومسألة القياس الأرسطى، وأن الحكيم الترمذى قد يقصد بإلحاق الفرع بأصله اعطاء الجزئى حكم الكلى، وذلك هو جوهر القياس الأرسطى فى أجلى وأوضح أشكاله وضروبه.. ولكن ذلك أبعد ما يكون عن قياس الحكيم الترمذى فالحكيم الترمذى لايبحث عن كلى تندرج تحته جزئيات تأخذ حكمه، لكنه يبحث عن العلة الباطنة فى جزئية جزئية بصرف النظر عن كونها تندرج فى جنس أو نوع.. وهو يثبت أن هذه العلة التى يصدر الحكم بمقتضاها موجودة فى كل جزئية بعينها وعلى حدتها، وخاصة بها. وأينما وجدت هذه العلة فى جزئية من الجزئيات استلزمت نفس الحكم، لا بالمشابهة فهذه المشابهة قد تصحح المشاكلة، ولاشأن لها بالقياس. بل بإدراك العلة نفسها فى كل جزئية بعينها(٤)

فالحكيم الترمذى لا يقبل قياس أهل الرأى، ويراه غير ملزم له ولايتعرض إطلاقا لأسلوب القياس الأرسطى، ولكنه فى نفس الوقت لايوافق الذين ينكرون القياس

---

(١) الدكتور عثمان يحيى، هامش «ختم الأولياء» للترمذى، ص ١١٦.

(٢) الحكيم الترمذى «الفروق ومنع الترادف» مخطوط، ٩١ ب.

(٣) انظر الدكتور بركة «الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية» جـ ١، هامش ص ٨٧.

(٤) انظر الدكتور بركة «الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية» جـ١ص ٩٣.

بالكلية على اعتبار من قال : أن الله فرض الفرائض وشرع الشرائع لا لعلة[1] بل يرى أن فى كل مسألة علة تقتضى حكما خاصا بها، قد تكون هذه العلة ظاهرة بينة فلا تحتاج إلى بحث كثير ويستطيع إدراكها أهل العلم الظاهر، وقد تكون دقيقة خفية فتحتاج إلى قلب صاف مستنير، قد أعطى نور الحكمة ليقفو به الأثر فى الفروع النازلة[2].

٣ - والأمر الثالث يرجع إلى الفقيه نفسه فلئن كان الأمر الأول يرجع إلى موضوع الفقه، والأمر الثانى يرجع إلى منهج الفقهاء، فإن الأمر الثالث يرجع إلى الفقيه فليس كل إنسان أهلا للقياس ولا موفقا فيه «ذلك أن المقايسة لعبد طالع أصول الحكمة بنور الفراسة»[3] ولايكون نور الفراسة هذا لكل إنسان فكذلك لايأتى الاستنباط والقياس لكل من عرض له:«ويحتاج أهل الاستنباط والاجتهاد فى الرأى إلى قلب ذكى مشحون بنور الله ونفس صافية من كدورة الأخلاق، عفيفة من أدناس شهوات الدنيا حتى يدرك الحق»[4].

ولقد بذل الحكيم الترمذى جهوداً كبيرة فى تحقيق مسائل الفقه وفى معالجة كثير من القضايا الفقهية على طريقته ومنهجه لكى يؤدى الفقه غرضه، ويصل إلى الغايـة.

وللحكيم الترمذى كتبا فقهية كتبها على النهج الذى ارتضاه لكتابة الفقه وكتبه الفقهية كثيرة دافع فيها عن نظريته فى القياس، رفض فيها قياس أهل الرأى،

---

(١) انظر : الاشعرى «مقالات الإسلاميين» جـ ٢، ص ١٦٢.

(٢) انظر الدكتور بركة «الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية» جـ١، ص ٩٣، ٩٤.

(٣)الحكيم الترمذى «الفروق ومنع الترادف» ص ٩٥، مخطوط بلدية الاسكندرية.

(٤) الحكيم الترمذى «الأكياس والمغترون» ورقة ١٤٤، ١٤٥.

ورفض فيها أيضا رأى نفاه القياس، موضحا أن قياس أهل الرأى ليس إلا مشاكلة، وموضحا أن لكل مسألة أصل هو العلة التى تقضى الحكم الخاص بها[1].

ويرى الحكيم أن إدارك علل العبادات إنما يأتى من طريق الحكمة عندما تبرأ الصدور من التخليط والرياء والتيه والتكبر والتضييع والإعجاب وعندئذ يذهب سقم الإيمان فتطالع الحكمة وتقصد الأمور على حسب جواهرها فما أدركنا من هذه العلل من طريق الحكمة تكلمنا فيه وبينا فيه تأويلا للحكمة لا حكما على الله فى غيبه[2].

ومؤلفات الحكيم فى الفقه وأصول أحكامه هى :

ـ كتاب العلل أو علل العبادات أو علل الشريعة:

وهو كتاب قد خصص لذكر بعض المسائل وبيان عللها، وهو إلى جانب كونه كتابا فقهيا يذكر الأحكام مقترنة بعلتها يحمل برهانا على وجهة نظر الحكيم فى أن لكل حكم علته فى مسألته.[3].

ـ كتاب إثبات العلل فى الأمر والنهى:

والحكيم الترمذى فى هذا الكتاب يناقش أولئك الذين يقولون أنه لاتعليل للأوامر والنواهى، ويوضح أن علل الأوامر والنواهى قائمة، يقول الحكيم «سألتنى عن ما اختلف الناس فيه من إثبات العلل فى الأمر والنهى، فقال قائلون : هذا تعبد من ربنا خلقهم فتعبدهم للأمر والنهى، وليس لأمره علة وإنما هو امتحان وابتلاء. وقال آخرون هو ابتلاء وامتحان تعبدهم به .. وليس يدفع هذا أحد منا، ولكن عللها قائمة علمها من علمها وجهلها من جهلها[4].

---

(١) انظر الدكتور بركة «الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية» جـ ١، ص ٩٦.
(٢) الحكيم الترمذى «إثبات العلل» مخطوط ورقة ٣٧ ب.
(٣) انظر الدكتور بركة «الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية» جـ ١، ص ٩٦.
(٤) الحكيم الترمذى «إثبات العلل» مخطوط ورقة ٣٤أ.

ـ كتاب الصلاة ومقاصدها:

وفى هذا الكتاب يتحدث الحكيم عن شأن الصلاة من بين الأعمال وعن صورتها من بين الأفعال، وعن ثمرتها من بين الطاعات، وعن مثوبتها غدا من بين المثوبات، وعن موقعها ومحلها عند الله فى الدرجات، وعن سلطانها فى الشريعة وشهرتها فى السماوات[١].

ـ كتاب الحج وأسراره:

وفى هذا الكتاب يتحدث عن الحج بدقة التأليف، والتحليل العميق لمعانى الحج من بين سائر الفرائض الأخرى، ويرى أن فريضة الحج هى عماد الإسلام. ومغزاها هو تسليم النفس عبودة ورقا، وأن يحنف العبد إلى ربه لايقصد غيره، وتنفرد فريضة الحج بأنها طريقة المعرفة إلى الله[٢].

ـ وكتاب سبب التكبير للصلاة، وكتاب كيفية الوضوء والسواك والصلاة، وكتاب كيفية الصلاة، وهذه الكتب لاتزال مخطوطة.

وبات من الواضح أن كتب الحكيم الترمذى الأخرى تتصل بالفقه وتعالج كثيرا من المسائل الفقهية.

ولا ننسى أن الحكيم الترمذى ينظر إلى الفقهاء ـ من منهجه ـ على أنهم طوائف.

ـ منهم فقهاء يطلبون الفقه لغرض دنيوى ويقول الحكيم فى هؤلاء : «وإذا تفقه فيها استبشر بما عنده من ذلك بشرى الرياسة، ونوال العز وشرف المجالس، وطمأنينة قلبه، مع مطالعة فهمه بتلك الأشياء والمقاييس والعلل، ليناطح به الأشكال، ويسامى به الأقران، ويقهر به الأضداد، فذلك متنزهه فى الدنيا، يدأب فيه ليله ونهاره بلا حسبة ولانية، ولا طلب إقامة حق الله أو إحياء دين الله»[٣].

---

(١) الحكيم الترمذى «الصلاة ومقاصدها» ص ٢ المقدمة تحقيق الأستاذ حسنى نصر زيدان، ط دار الكتاب العربى.

(٢) الحكيم الترمذى «الحج واسراره» المقدمة تحقيق الاستاذ حسنى زيدان، ص ١٢، ١٣ ، ط دار السعادة.

(٣) راجع الدكتور بركة «الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية» جـ١ص ٩٩.

- ومنهم فقهاء يسيرون بنور العقل فى ميدان العلم الظاهر، وليس لهم من نور الحكمة مايمكنهم من اقتصاص الآثار للوصول إلى الأحكام الباطنة وهؤلاء يخاطبهم الحكيم من مقامين:

أما من مقام الحكم الشرعى فهم مجتهدون مأجورون إن أصابوا فلهم عشر حسنات، وإن أخطأوا فلهم حسنة واحدة هذه الحسنة ليست لوصولهم إلى حكم ما، بل لاجتهادهم[١].

يقول الحكيم الترمذى فى كتابه «الفروق ومنع الترادف»: «والذى لم يعط نور الحكمة وقف عند مفرق الطريقين، ثم شاكل بالأمور التى تأخذ إلى طريق الثواب، ومر بالأمور التى تأخذ إلى طريق العقاب، فالحقه بأحدهما، فربما أصاب الذى عند الله، وربما لم يصب»[٢].

وأما يخاطبهم من المقام الذى يتطلب فيه الفضل والكمال، ولذلك فهو يناقشهم فى هذا المقام فى خاصة أنفسهم وسلوكهم فى حياتهم، ويرى أن عدم محاولتهم تحصيل الكمال فى أنفسهم هو السبب المانع لهم من تحصيل الكمال فى علمهم، ويرى أنهم مغترون فرحون بما لديهم من العلم[٣].

وفى نوادر الأصول نجد أن الحكيم الترمذى فى الأصل الثالث والستين والمائتين، تحت عنوان «فى حقيقة الفقه وفضيلته» يقول : «فهؤلاء الذين انتحلوا هذا الرأى وأكثروا فيه الخوض سموا هذا فقها وخيل إليهم أن هذا هو الذى ماعبد الله بمثله، وهو هذه المسائل التى عندهم فقط ولا يعلمون أن أستاذيهم تكلموا بها ثم قالوا : وددنا أنا نجونا منها كفافا لا لنا ولا علينا مثل إبراهيم النخعى والشعبى والحسن وابن سيرين رحمهم الله فى زمانهم وأبى حنيفة وسفيان والأوزاعى ومالك رحمهم

---

(١) الحكيم الترمذى «الأكياس والمغترون» ص ٤٤.

(٢) انظر الدكتور بركة «الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية»جـ ١، ص ١٠٠.

(٣) المرجع السابق.

الله فى زمانهم، فكل تمنى الخلاص منه لا له، ولا عليه، وهؤلاء أعرضوا عن سائر العلوم التى حاجة الناس إليها فى كل وقت، وصار هذا النوع فتنة لهم، فتراه طول الدهر يقول يجوز ولايجوز، يدخل فيما بينه وبين عباده مع الحيرة فى ذلك، ولايدرى أصواب هو أم خطأ، ثم تراه فى خاصة أمره ودينه عوج كله، فإقباله على نفسه حتى يكف منها مالا يجوز خير له من إهمال نفسه، وإقباله على إصلاح الناس ذلك ليعلم أنه مفتون وكان المتقدمون أولى بالشفقة على الأمة والحرص على الدين والنصيحة لهم، فشغلهم إصلاح أنفسهم عن الخوض فى هذه الأشياء حتى لا يلهيه عن عيوب نفسه»[1].

أما الصنف الثالث «فهم أهل القياس حقا لأنهم أهل الباطن الذين ينفذون بنور الحكمة إلى أصول المسائل، فيقوون على رد الأمور إلى أصولها»[2].

ويصور الحكيم الترمذى المسائل كلها فيقول:«الفقه مشتق من التفقه وهو انكشاف الغطاء عن الشئ فعلوم الأشياء فى الصور مجتمعة متراكمة بعضها على بعض، فإحساس القلب من ذلك العلم هو علم القلب أداه إلى الذهن وإلى الحفظ عند الحاجة كنبعان العين ينفجر منه الشئ بعد الشئ، فمادام هكذا، فهو ساكن خامد لاقوة له، فإذا تصور فى الصور لعين الفؤاد قوى القلب بذلك الذى تصور، فذلك علم مستتر فى القلب بقية من الضعف والخمود.. فإذا انكشف الغطاء عن الصورة التى تصورت فى الصدر فذلك الفقه لأنه حين تصور فى الصدر أحس القلب بتلك الصورة علما ولم يرها لأن الغطاء بينه وبين العلم قائم وهو ظلمة الهوى، فهم عالم بذلك الشئ يترجمه بلسانه، ويتضمنه بحفظه وتمثل صورته لعقله، وليست له قوة ـ ينتصب قلبه لذلك ويتشمر لفعله ويطمئن إليه ـ حرارة العلم وقوته. فإذا انكشف الغطاء عن

(١) الحكيم الترمذى، «نوادرالأصول فى أحاديث الرسول» ص ٣٦٦.

(٢) الدكتور بركة «الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية»جـ ١، ص ١٠١.

تلك الصورة التى صورها عقله صار عيانا للفؤاد، فيقال لذلك العيان علم اليقين»[1].

والملاحظ على كتابات الحكيم الفقهية أنه يعنى:

أولا : بإبراز الآثار والأهداف الروحية التى تعود على المرء بألوان العبادات المختلفة بصرف النظر عن التعريفات التى أولاها الفقهاء عناية خاصة.

ثانيا : يحاول أن يكشف عن العلل التى من أجلها جاءت العبادات على الصورة المعروفة.

ثالثا : يبنى أغلب هذه التعليلات على ما جاء عن النبى ﷺ من أحاديث تتعلق بالموضوع الذى يناقشه.

رابعا : يتحدث عن الآفات التى تعطل هذه العبادات عن تحقيق الأهداف الروحية المقصودة والآثار النفسية المترتبة عليه.

وليس عسيرا على الدارس أن يلمس سيادة التفكير الصوفى على هذا الجانب من كتابات الحكيم[2].

وبعد .. فالحكيم الترمذى كان فى الفقه فريدا، نظرا لإحاطته الدقيقة بكثير من أسرار المعانى ولقد استطاع أن يعمق الأفكار الشرعية ويستكنه أسرار الشريعة، ويخرج منها بما لم يخرج على الكتاب والسنة.

---

(١) الحكيم الترمذى «نوادر الأصول فى أحاديث الرسول» ص٣٦٦.

(٢) انظر الدكتور الجيوشى «الحكيم الترمذى ودراسة لآثارة» ص ١٧٩.

المبحث الثالث

جهود الحكيم فى علم الكلام وموقفه من المتكلمين

الحكيم الترمذى إمام من أئمة الإسلام، وعلم من أعلام الرجال ومفخرة العلماء السالكين. تشبع من الثقافة الإسلامية على اختلاف ألوانها وانعكست أضواء ثقافته على مؤلفاته وتجلى فى جميع ماكتب: صفاء الذهن، وعمق الفكرة، ودقة التحقيق.

ومما يدركه الدارسون والمتتبعون لمؤلفات الحكيم أنه لم يضع كتبا مستقلة فى مباحث علم الكلام كما فعل فى فروع المعرفة، والعلوم الأخرى اللهم إلا رسالة فى موضوع الإمامة بعنوان «الرد على الرافضة»[1]، رد فيها على أهل الرفض لإمامة أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضى الله عنهما، كما ناقش فيها قضية الخلافة، أما كتاب «الرد على المعطلة» فهو كتاب حديث تناول موضوعا من موضوعات علم الكلام وهو إثبات الصفات لله سبحانه وتعالى، على منهج أهل السنة، وهو بهذا يرد على المعتزلة الذين يرون نفى الصفات ويسمى الحكيم المعتزلة فيما ذهبوا إليه بالمعطلة كذلك يرد على الكرامية[2] الذين يقولون بالتجسيم أو التشبيه.. والمتأمل فى كتاب «الرد على المعطلة»يجد أن الحكيم الترمذى:«تناوله من وجهة نظره كمحدث، وكان عمله فيه عملا يستهدف أولا وقبل كل شئ جمع الأحاديث التى تعضد وجهة النظر السنية المثبتة لصفات الله سبحانه، ومن هنا يمكن القول بأن الحكيم كان يعتنق مذهب أهل السنة فى علم الكلام وأن لم يخض فى مباحثه كما خاضوا»[3] .. ومن الملاحظ أن الحكيم ذكر الأحاديث فى كتابه دون تعليق منه أو

---

(١) مخطوط بمكتبة ولى الدين بتركيا تحت رقم ٧٧٠.

(٢) الكرامية اتباع محمد بن كرام ٢٥٥ هجرية.

(٣) الدكتور الجيوشى، الحكيم الترمذى دراسة لآثاره، ص ١٨٢.

شرح لتقول كلمات الأحاديث عنه مايريد أن يقوله هو ... وقد أكثر الحكيم من الكلام فى كتاباته ومؤلفاته على التوحيد والموحدين بطريقة ومنهج يختلف عن منهج المتكلمين فى معالجة هذه المسائل.. لقد كتب الحكيم فى التوحيد بطريقة موضوعية يتعامل معها الإنسان فى كل وقت، وهذا من شأنه أن ييسر إدراك الدليل ويمهد النفس لتقبله، ويقوى الالتزام به، يقول الحكيم فى معنى لا إله إلا الله: «إن كلمة لا إله إلا الله لازمة للخلق: الاعتقاد لها قلبا، والاعتراف بها نطقا، والوفاء بها فعلا، فأما الاعتقاد لها قلبا، فأن تعتقد نفى القدرة عن جميع من تولهت إليه القلوب فى المضار والمنافع سواء.. وأما الاعتراف بها نطقا فأن يقول : لا إله إلا الله، وأما الوفاء بها فعلا فأن يكون له من الثقة فى باب النوائب، ومن التوكل فى باب الرزق، ومن التفويض فى باب الحوائج، ومن الصبر فى باب الشهوات، ومن القناعة فى باب المنالات، ومن الانقياد فى باب العبودات، ومن التسليم فى باب المتشابهات، ما يحفظ هذه الجوارح السبع التى أؤتمن العبد عليهن»[1].

ومنهج الحكيم كما يتبين للدراس يقوم على إقناع الإنسان بجانبيه الوجدانى والعقلانى «فالإنسان ـ كما هو معروف ـ مركب من جانبين، جانب وجدانى، وجانب عقلانى، وكل من هذين الجانبين له أسلوبه الذى يعالج به، فليس يقنع الجانب الوجدانى ما يقنع الجانب العقلانى، والعكس صحيح، وحين نقتصر فى محاولاتنا إقناع الإنسان بقضية ما على مخاطبة جانب واحد، فإن تلك المحاولات تفشل يقينا، ولا تؤتى ثمارها المرجوة وقصارى ما نصل إليه فى تلك الحال هو أن نخلق نوعا من الشك والحيرة لدى الإنسان ولكنا أبدا لن نصل إلى مرتبة الإقناع، لأن الوصول إلى تلك المرتبة رهن بتضافر الوجدان والعقل جميعا»[2].

قال أبو عبد الله محمد الترمذى: تفسير كلمة لا إله إلا الله «إذا قال العبد لا

(١) انظر الحكيم الترمذى، الكلام على معنى لا إله إلا الله، ص ١٣.
(٢) راجع الدكتور مزروعة، المنهج القرآنى فى الاستدلال، ص ١٠٨، ط دار الطباعة المحمدية.

إله إلا الله، فإن معناه : لا رازق، ولاكاف ولامعبود إلا هو، ولا نافع ولاضار، ولامعطى ولامانع ولا محيى ولا مميت ولا معز ولا مذل إلا الله عز وجل»[١].

ان حديث الحكيم عن التوحيد هو الحديث الذى يرضاه السالكون ويعتقدون أنه التنزيه الحق الذى يليق بالله سبحانه وتعالى. وهو حديث يعتمد على الجانب الوجدانى أكثر من اعتماده على الجانب العقلانى.. ولايخفى أن الأدلة التى صيغت بأسلوب عقلى محض، لم تفقد الجانب المهم فحسب، بل فقدت الجانب الأهم حين عرت عن كل مايخاطب الوجدان ويأسره.

وللحكيم جهود فى مباحث أخرى من مباحث علم الكلام، أشار إليها فى كتاباته إشارات يتبين منها رأيه ومنهجه.

ومن ذلك موضوع «الإيمان» هل هو مكتسب أو موهوب؟ وهل يزيد وينقص؟وهل الإسلام والإيمان اسمان لشئ واحد؟ أم لشيئين مختلفين؟

ويعرض الحكيم الترمذى المقولة الأولى: هل الإيمان مكتسب أو موهوب؟ فيقول: «سألتنى عما وقع فيه الناس من الاختلاف فى الإيمان ومحله من ابن أدم، وإنما أتوا ذلك من قلة أفهامهم، وترك الاستقصاء فى النظير..فاعلم أن الله تبارك اسمه خلق هذا الآدمى وركب فى رأسه عينين وأذنين، يبصر ويسمع ظاهر الأشياء، وجعل فى جوفه بضعة من لحم لها عينان وأذنان، فسماها قلبا وفؤادا، والقلب مابطن منهما والفؤاد ما ظهر منهما، والعينان على الفؤاد، والرؤية له، وذلك قوله : ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴾[٢] وجعل لهذه البضعة ساحة وهى الصدر، وذلك موضع العلم، وجعل فيه الروح، وفيه الحياة، وهو سماوى. جعل فيه نفسا، وهى أرضية وفيها الحياة وجعل مستقر الروح فى الرأس، ثم هو منتشر فى جميع الجسد، مشتملة عليه

---

(١) انظر الحكيم الترمذى، «علم الأولياء» ص ١٨١، ط مكتبة الحرية الحديثة.

(٢) سورة النجم آية ١١.

بالشهوات والهوى. وجعل مستقر العقل فى الرأس معه الروح، وفى هذا الحفظ ثم يشرق فى الصدر نوره، وهناك معتمله، ومستقر الذهن فى الصدر والعلم معه، فمنه تصدر الأمور إلى الجوارح فبذلك العلم علم الآدميون كلهم أن لهم ربا وإلها، فأقروا به ، وفزعوا إليه فى المضار والمنافع، وعرفوه بقلوبهم، والقلب أمير على الجوارح، والمعرفة فيه. وتلك معرفة الفطرة التى فطر الناس عليها[1].

والحكيم الترمذى لايقف عند هذا الحد من المناقشة والعرض بل يقرر فى تأكيد قوى فيقول : «إن الإيمان استقرار القلب، وطمأنينة النفس، والقلب كان طالبا لربه، مترددا لايستقر، والنفس متحيرة لاتسكن فلما جاء نور الهداية استقر القلب، واطمأنت النفس فقيل أمن على قالب فعل يأمن أمنا ، والاسم منه الأمن، وذلك طلبه معبوده، فتردد فى طلبه مرة إلى الوثن، ومرة إلى الشمس والقمر، ومرة إلى النيران وهو فى ذلك متحير، فلما وجد هذا النور من منة الله عليه، سكن عن التردد والجولان فقيل أمن من يؤمن إيمانا ، والاسم منه إيمان فالنور هدية الله لأهل منته وأحبابه وأوليائه والسعداء من عبيده، ومعدن ذلك النور فى القلب، والإيمان هو لمن نال هذه الهدية»[2].

ولعلنا ندرك فى وضوح تام أن الحكيم الترمذى يناقش هذه القضايا من باب القلب، وذلك لأن القلب معدن النور، والنور هدية الله. وبناء على ماذكره الحكيم فى مقولة: هل الإيمان مكتسب أو موهوب نجد أنه :«يرى أن الإيمان مكتسب ولكن ما كان به الإيمان وهو العقل فهو موهوب»[3] أما مقولة : «هل الإيمان يزيد وينقص»؟ فإننا نجد أن الحكيم يذهب إلى أننا «حينما ننظر إلى الإيمان باعتبار حقيقته وذاته

---

(١) الحكيم الترمذى، «مسألة فى الإيمان والإحسان والإسلام» تحقيق الدكتور الجيوشى، مجلة منبر الإسلام عدد ٦ ص ١١٥، السنة ٣٨.

(٢) الحكيم الترمذى، «مسألة فى الإيمان والإحسان والإسلام» منبر الإسلام ع ٦، ص ١١٧، السنة ٣٨.

(٣) الدكتور الجيوشى «الحكيم الترمذى وقضايا علم الكلام» مقال بمجلة منبر الإسلام ع ٢، ص ١٠٧، السنة ٣٨.

هو لا يزيد ولاينقص، وأما إذا نظرنا إلى تأثيره وأثره فإنه تجرى عليه حينئذ الزيادة والنقصان بسبب ما يعترى قلب المرء من أغراض وأهواء تحجب أشعة الإيمان أن تنطلق فتوجه سلوك الإنسان وتصرفه[١] وقد ضرب الحكيم للحالتين مثلا بقرص الشمس بالنظر إلى الحقيقة، وبشعاع الشمس بالنظر إلى الآثار[٢] .. ويقول الحكيم فى مناقشته لهذه المقولة «ولقد دخلت بين متنازعين، يقول أحدهما: الإيمان يزيد وينقص ويقول الآخر: لايزيد ولاينقص، فأشرت إلى عين الشمس، فقلت : ماهذه ؟

قال : هذه شمس.

فقلت : تنقص أم تزيد ؟ قال : لا.

ثم أشرت له إلى إشراقها على الأرض.

فقلت: ماهذا ؟ قال هذه شمس..

قلت : تزيد وتنقص.. فتحير قلبه.

قلت : أليس إذا كان بينهما وبين الأرض غيم أو سحابة رقيقة نقص من إشراقها فإذا ذهب الغيم زاد فى إشراقها؟ قال : نعم.

قلت : أفليس تسميه شمسا وهو يزيد وينقص، وتلك العين تسميها شمسا وهى لاتزد ولا تنقص؟ قال : نعم..

قلت : أفليس بقدر ما تنقص يدخل النقص فى جميع بنى آدم والزروع والثمار وإذا زاد إشراقه عمت حرارته فى زرعهم وثمارهم؟ قال : نعم..

قلت : فكذلك الإيمان بمنزلة الشمس التى قد برزت لك على قلبك من النور وأشرقت على صدرك، فإذا حال بينها وبين القلب غيوم الشهوات، والهوى نقص الإشراق فدخل الوهن فى القلب، وفى النفس، وتعطل عن العمل وإذا ذهب الهوى

---

(١) الدكتور الجيوشى «الحكيم الترمذى دراسة لآثاره» ص ١٩٠، ط النهضة المصرية.

(٢) الدكتور الجيوشى «الحكيم الترمذى وقضايا علم الكلام» منبر الإسلام ع ٢، ص ١٠٧.

والشهوة زاد في إشراقه، استقر القلب، وقويت النفس للعبودية فمن الإشراق يزداد وينقص، فأى تنازع بقى هاهنا.

فمن قال : يزيد وينقص «بهذا المعنى» وهذا مصيب فى قوله.

ومن قال : لايزيد ولاينقص لأنه متى نقص دخل الشك، فأما الزيادة التى ذكر الله تعالى فى تنزيله يزيده نورا إلى نور، فيزداد قلبه بذلك النور الزائد إيمانا أى استقراراً وثباتًا »[1].

ومقولة : هل الإيمان والإسلام اسمان لشئ واحد أم لشيئين مختلفين؟ يرى الحكيم «أن الإيمان غير الإسلام فهما نوعان فى عقد واحد»[2]. ويقول فى هذا :«ثم وجدتهما مختلفين، فقال : أحدهما : الإيمان والإسلام واحد، وقال الآخر شيئان متباينان.

فقلت لهما : متى وجدتما اسمين معناهما واحد، لايزيد أحدهما على الآخر، وان دقت تلك الزيادة، ولو كان كما زعمت لكان فضلا وهذيانا.

وأعلم أن الله تعالى أعطى العباد ما انقطعت حجتهم، فأراهم من الآيات فى الظاهر، وأعطاهم ماينفعهم فى دنياهم، وركب فيهم الشهوات من العلم والذهن فى الباطن حتى علموا ما يضرهم والهوى حتى دعاهم إلى عبادة من دونه طمعا فى المنافع ودفع المضار، ثم انه كان لله عبيد اختارهم وانتخبهم لنفسه، وخلقهم للسعادة، فمن عليهم بالهداية، وابتدأ أمرهم بأن طهر قلوبهم التى يريد أن يجعلها خزائنه ووعاء لمعرفته وأنواره وآياته، وموضع أسراره، وموضع نظره، فأنزل عليها رحمة طهرها بماء الرحمة حتى صلحت لهذه الأشياء التى وضعها هناك وذلك قوله تعالى:﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴾[3].

---

(١) الحكيم الترمذى «مسـألة فى الإيمان والإحسان والإسلام» تحقيق الدكتور الجيوشى، منبر الإسلام ع٦ ص ١١٨، س ٣٨.

(٢) الدكتور الجيوشى «الحكيم الترمذى وقضايا علم الكلام» مقال بمجلة منبر الإسلام.ع٢ ،ص ١٠٧، س ٣٨.

(٣) سورة البقرة الآية ١٣٨.

والصبغ كل شئ يغمس فى شئ فهو صبغة، ولذلك سمى الصبغ صبغا لأن الثوب يغمس فيه، ولذلك سمى صباغ الطعام من الخل والمرئ وغير ذلك الأصباغ، فكل مغموس فيه مأكول فهو صباغ، وكل صبغ فيه ملبوس فهو صبغ، فمن اختاره الله تعالى واجتباه فمبتدأ أمره أن يطهر قلبه بماء الرحمة، حتى يدعه كالشئ المغسول، ثم أحياه بنور الحياة وذلك قوله : ﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ ﴾ [1].

فإنما كانت بضعة من لحم، لهما عينان لاتبصران، وأذنان لايسمعان فلما طهره بماء الرحمة صلح لنور الحياة، فلما جاء نور الحياة حيى قلبه بالله، ثم جاء نور الهداية فهداه، وذلك قوله :﴿ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ ﴾[2].

فذلك نور المعرفة، ثم جاء نور العقل، فبنور العقل عقل نور المعرفة عن النكرة، فاستقر لأنه زينة ثم جاء نور الحب فقيده، فعندها صار محكما، فاعترف بلسانه بلا إله إلا الله مع أنوار المعرفة التى فى عقد قلبه على أنه ربه، وهو له عبد، فهو حشو هذا العقد انه رب يملكه ويحكم فى أموره ما يشاء، وأنه له عبد ينتهى إلى جميع ما يأمره، ويرضى بجميع ما يحكم به عليه انقيادا، فاستحق ها هنا اسمين : «مؤمنا ومسلما » فأما اسم المؤمن فلانه استقر واطمأن عن التردد والجولان لطلب ربه، واسمه المسلم لأنه سلم نفسه إليه فى جميع مايأمره، فمن قال من المتقدمين الإيمان والإسلام واحد فإنما قاله لأن ذلك منه فى عقد واحد، فأما أن يكون نوعا واحد فلا.. وكيف يكون الاستقرار والطمأنينة والتسليم لأمره ونهيه نوعا واحدا، ومن قال هاهنا واحدة وخفى عليه هذه الصفة فقط غلط فيه، فالعقد واحد، والقبول واحد، ولكنه عقد وقبول لنوعين، ثم اقتضى العبد من يوم أمن وأسلم فى جميع عمره أن يفى بهذا

(١ ، ٢) سورة الأنعام الآية ١٢٢.

العقد والقبـــول ووضع بين يديه العبودية نوعين: أمر يحكم به عليه ربه، وأمر يأمـره به ربه»[1].

وأننا لندرك فى غير خفاء أن الحكيم الترمذى يعالج قضايا علم الكلام بما يرتبط بالسلوك والأحوال والأوامر والنواهى. ولذلك كانت مناقشاته مفيدة لاعقم فيها. تربط الإنسان بالحياة وتصله بالله، ففى موضع الإيمان والإسلام يصل إلى أن العبودية نوعين : أمر يحكم به رب العزة على الإنسان، وأمر يأمر به، والأمر الأول يقتضى الوفاء ليطمئن القلب والنفس إلى ما حكم به الله. والأمر الأول الذى يأمر به: هو الفرائض وترك المحارم والوفاء بذلك يقتضى التسـليم فى كل أمر أمـره ونهى نهاه..

ويرى الحكيم أن سبب النزاع القائم بين العلماء والباحثين فى الإيمان وما يتصل به من قضايا، هو : أنهم اهتموا بالأسماء ولم يبحثوا عن الأصول ولو بحثوا عن الأصول لما كان هذا النزاع. يقول الحكيم: «وأنى وجدت عامة هؤلاء المتنازعين متنازعون فى الأسماء، ولا سبيل لهم إلى الأصول فيسكن تنازعهم، فمثلهم فى ذلك كمثل رجل قال لثوب : هذا خز، وقال الآخر : شعر ، فكلاهما يرجعان إلى شئ واحد لأن الخز أيضا هو شعر، إلى خلقه الذى سمى له، وكرجل قال : هذا كلأ، وقال آخر هذا حشيش، وقال آخر : هذا نبات، وقال آخر : هذا أذخر وقال آخر : هذا مرعى، فمرجعهم إلى شئ واحد. فإنما اختلفوا لأن فى كل اسم معنى زائد لطيف دقيق»[2] .. إنما يخوضون بجهلهم بالأسماء، وتقع بينهم المنازعة[3].

ومن مباحث علم الكلام التى تناولها الحكيم بالشرح والمعالجة موضوع «رؤية

---

(1) الحكيم الترمذى «مسألة فى الإيمان والإحسان والإسلام» تحقيق الدكتور الجيوشى، منبر الإسلام ع٦ ص ١١٩ السنة ٣٨.

(2) المصدر السابق.

(3) المصدر السابق ص ١٩٩.

الله» وقد كان تناول الحكيم لهذه القضية يقوم على مايقطع السبيل على المجادلين المعاندين، ويرى أن المتكلمين وأهل الصور الجدلية مابعدوا عن الصواب إلا بسبب سوء التأويل، ويقول فى هذا «وأهل الأهواء بسوء التأويل ضلوا، لم يعقلوا اللغة، ولم يفهموا المعانى، ولهم نفوس مظلمة يحرفون الكلم عن مواضعه بظلمة أهوائهم، وقلوبهم، ومن قل فهمه، أو عزب عنه فى وقت ساء تأويله»[١].

ويناقش «رؤية الله» فى كتابه المسائل المكنونة تحت عنوان مسألة أخرى لاتدركه الأبصار فيقول : ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ﴾ [٢] فإنما ذكر الأبصار ولم يذكر سائر الأعضاء كقوله: لاتلمسه الأيدى، ولاتشمه الأنف، ولا تحس به الأسماع. لأن البصر فيه حياة الروح، وبصر الروح فى بصر العين، متصل به فهو أحد وأقوى من سائر الأعضاء، فإذا كان البصر لا يدركه فى حدته وقوته فالأيدى أعجز ثم قال: ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ﴾ أى يدرك الحياة التى فى البصر»[٣].

وبعد أن يضع هذا المدخل لموضوع الرؤية يناقش المنكرين لها فيذكر: أن من احتج بهذه الآية فى شأن الرؤية ودفع الرؤية وأنكرها فليست له هاهنا حجة لأن الرؤية هى انفراج الشئ يقال رأى ورها فالهاء بدل الهمزة، ورها أى انفرج، وهو قوله: ﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا﴾[٤] أى منفرجا، وذلك أنه لما ضرب البحر بالعصا انفلق فكان كل فرق كالطود العظيم، فمشت بنو إسرائيل فى المنفلق وهو المنفرج بين الطودين، فذاك الرهو، فيقال : رها ورأى، الهمزة بدل من الهاء، فإنما سأل موسى ﷺ، فقال: ﴿أَرِنِي﴾[٥] أى افرج لى الحجاب أنظر إليك، والنظر هو فعل العين، ينظر جلاله

---

(١) الحكيم الترمذى، الأكياس والمغترين، ص ٢٣ ، المكتبة الظاهرية.

(٢) سورة الأنعام الآية ١٠٣.

(٣) الحكيم الترمذى، «المسائل المكنونة» ص ٨٤، تحقيق الدكتور الجيوشى، ط دار التراث العربى.

(٤) سورة الدخان الآية ٢٤.

(٥) تمام الآية :﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الأعراف الآيه ١٤٣).

وعظمته وبهاءه، من غير أن يأخذه يقال: نظر ونضر، فالنضرة زهرة الوجه، والنظرة زهرة العين، فسأل الرؤية وهو انفراج الحجاب لزهرة العين إلى جلاله وعظمته وأما الإدرك فهو الأخذ وهو «الاندرياب» بالاعجمية وبالعربية الإدراك: الاشتمال، فأهل الجنة ينظرون إليه، ولاتشتمل أبصارهم على مايرون منه من الظاهرية، فأما الباطنية فلا قوام لأحد على النظر إليه، ولاسبيل إليه، وهو بالعربية بلا كيفية»[1].

فالحكيم ـ كما نرى فى هذا النص ـ يفرق بين الإدراك والرؤية ذلك أن الإدراك يقتضى الإحاطة والله سبحانه لايدرك إدراك إحاطة لا فى الدنيا ولا فى الآخرة، ولكنه سبحانه يدرك كل شئ ولهذا نفت الآية الإدراك ولم تنف الرؤية، والحكيم يرد «فى النص» على مانعى الرؤية فى الآخرة، وأما الرؤية فى الدنيا فلا تكون»[2].

أما الرؤية فى الآخرة فيرى الحكيم أنها ممكنة وحاصلة للمؤمنين «وقد أجاب الحكيم بصراحة وباختصار على سؤال وجه إليه : أيرى فى الآخرة؟

قال : نعم. قال : كيف يرى؟ قال : كما يعرف هاهنا، قال : كيف يعرف هاهنا؟ قال : كما يرى هناك[3].

والمعرفة التى يشير إليها الترمذى هى : قدرة القلب على الكشف باستصحاب الطاعة والتصفية والإخلاص، ولعل ذلك أن الله تعالى جعل القلب مستودع الأسرار، وخزينة الانفعالات المتقابلة، ومستقر عجائب المعانى والغيوب، فالبصر للملك، والبصيرة للملكوت، وان هذه الأمور من التجارب السلوكية التى لا مجال للمتمنطق فيها. وإنما هى من الجوانب العملية التى تثمرها الأذواق والمواجيد، وتتجاوب فى آفاقها الأشواق فلا يدركها تعبيره ولا يلحقها تصور[4].

---

(١) الحكيم الترمذى «المسائل المكنونة» ص ٨٤، ٨٥، تحقيق الدكتور الجيوشى.

(٢) الدكتور الجيوشى «الحكيم الترمذى» دراسة الآثارة ص ١٨٤.

(٣) الحكيم الترمذى نقلا من كتاب الحكيم الترمذى دراسة لآثاره للدكتور الجيوشى ص ١٨٤.

(٤) الشيخ محمد زكى ابراهيم «أبجدية التصوف الإسلامى» ص ٧٨، ٧٩ الحكيم الترمذى «مسألة فى الإيمان والإسلام والإحسان» ص ١١٧ تحقيق الدكتور الجيوشى ،منبر الإسلام ع ٦، ص ٣٨.

والمتابع لما جاء عن الحكيم فى قضايا علم الكلام.. يجد أنه يلتزم بالشرع فى هذه الأمور لذا نراه فى قضية القرآن وخلقه التى ثار حولها ما ثار يقول : «ولايدرون ما القرآن، ولايدرون ما المخلوق، ولم سمى قرآنا ولم يسمى مخلوقا إنما هو كلام على الألسنة كالهذيان، يقاسون من تلقاء أنفسهم، ويطلبون حذق الكلام ودقته، أقل قوم دعة وأشدهم حسـرة»[1] وفى موضوع آخر من رسالته: «مسألة فى الإيمان والإحسان والإسلام» يقول: «يقولون القرآن ولايدرون ما القرآن فمرة يشيرون إلى ما فى الصحف ومرة يشيرون إلى أصول القراءة، ومرة يشيرون إلى الوحى، والأولى بهؤلاء السكوت عن مثل هذا ، والإقبال على ما أمروا»[2].

ويعلق الدكتور عبد الفتاح بركة فى رسالته «الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية» على هذا النص بقوله:«فماذا نرى؟ نرى أنه يطلب قبول ما جاء به الشرع، والتسليم له دون الاشتغال بالبحث والاستقصاء فى مسائله هذه إذ الأولى بنا أن نشتغل بما أمرنا به»[3].

والباحث فى كتابات الحكيم يدرك أن الحكيم كان على معرفة تامة بمذاهب علماء الكلام وقد جاء الأصل الثالث والستون والمائة فى كتاب «نوادر الأصول» عن «مذهب أهل الأهواء» تحدث الحكيم عن هذه المذاهب تحدث العالم، ويقول فيها : «أهل الأهواء قوم استعملوا أهواءهم والأهواء ميالة عن الله تعالى، فحيث ما مالت اتبعتها قلوبهم لأنه لم يكن فى قلوبهم من النور مايصدهم عن اتباعها، وأهل الأهواء كلما استحلوا شيئا ركبوه واتخذوه دينا حتى ضربوا القرآن بعضه ببعض وحرفوه»[4].. وفى موضع آخر من هذا الأصل يقول: «وقوم هم أهل الضلالة

---

(١) الحكيم الترمذى «مسألة فى الإيمان والإسلام والإحسان» ص ١١٧، تحقيق الدكتور الجيوشى منبر الإسلام ع ٦ ص ٣٨.

(٢) الحكيم الترمذى «مسألة فى الإيمان والإسلام والإحسان» ص ١٩٩.

(٣) الدكتور بركة «الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية » جـ ١، ص ١٠٨.

(٤) الحكيم الترمذى «نوادر الأصول» ص ٢٠٩.

كالمشبهة والقدرية والجبرية والجهمية وأشباههم مالت قلوبهم وأبعدوا وضلوا عن الله تعالى. فإن الله تعالى اقتضى للعباد الإسلام دينا والإسلام تسليم النفس، والدين الخضوع لله تعالى بتسليم النفس»[1] «وإنما صار هؤلاء فرقا لأنهم فارقوا دينهم، فبمفارقة الدين تشتّتت أهواءهم فافترقوا»[2].

ويتكلم الحكيم عن الخوارج فيقول : «الخوارج قوم ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، فهم الأخسرون أعمالا حبطت أعمالهم فلا يقام لهم يوم القيامة وزن، وذلك بأنهم قد اجتهدوا ودأبوا فى العبادة وفى قلوبهم زيغ وقاسوا برأيهم وتأولوا التنزيل على غير وجهه»[3].

والأزارقة صنف من الخوارج كان رئيسهم نافع بن الأزرق، وكان من شأنه أن يخاصم بتأول القرآن فى زمن ابن عباس رضى الله عنهما فنُسب أتباعه إليه فقيل الأزارقة، وفى زمن على كرم الله وجهه كان رئيسهم ابن الكواء، وفى زمن التابعين رضوان الله عليهم أجمعين كان نجدة الحرورى»[4].

ويذكر الحكيم أمثلة هؤلاء الذين ضلوا بسوء التأويل فيقول : وأما سوء التأويل فمثل فعل هؤلاء الحرورية كفروا بالذنب واحتجوا بقوله ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ وإنما هذا العصيان فى التوحيد، وهذا فى خطاب الجن»[5].

«ومازال بهم التنطع والتعمق حتى كفروا الموحدين بذنب واحد حتى صاروا بذلك

(١) الحكيم الترمذى «المرجع السابق» ص ٢١٠.

(٢) المرجع السابق ص ٢١٠.

(٣) المرجع السابق ص ٥٤.

(٤) الحكيم الترمذى «نوادر الأصول» ص ٥٥.

(٥) الحكيم الترمذى «الأكياس والمغترين» ص ٢٢، مخطوط الظاهرية بدمشق. (سورة الجن ٢٣)

إلى الأنبياء عليهم السلام للزيغ الذى فى قلوبهم دخلوا فيما لم يأذن به الله تعالى»[1] فأهل الزيغ ـ عند الحكيم ـ طالبون لها، باحثون عنها، ومفتشون عليها، ولن يزدادوا بذلك التفتيش إلا حيرة وعمى»[2].

ولعل ماذكرناه من كلام الحكيم الترمذى فى شأن هذه الفرق يعطينا صورة واضحة عن موقفه من هؤلاء.. والحكيم لايكتفى بهذه المواقف، بل يضع للباحثين والعلماء المقياس الذى يعرف به من هذه المسائل ما هو من الدين، وما هو ليس من الدين، فيقول :«فأما أصحاب رسول الله ﷺ بعده قد اختلفوا فى أحكام الدين، فلم يفترقوا، لأنهم لم يفارقوا الدين، وإنما اختلفوا فيما أذن لهم النظر فيه، والقول باجتهاد الرأى، واختلفت أراؤهم فاختلفت أقوالهم، وقد أمروا بذلك فصاروا باختلافهم محمودين لأنه أدى كل واحد منهم على حياله ما أمر من جهد الرأى والنظر فيه، وكان ذلك الاختلاف رحمة من الله تعالى على هذه الأمة حيث أيدهم باليقين، ثم وسع على العلماء منهم النظر فيما لايجدون ذكره فى التنزيل، ولا فى سنة الرسول عليه السلام حتى يلحقوه ببعض وكانوا أهل مودة وعطف متناصحين، أخوة الإسلام فيما بينهم قائمة، فكل مسألة حدثت فى الإسلام فخاض فيها الناس واختلفوا، فلم يورث ذلك الاختلاف عدواة بينهم ولابغضا ولافرقة، علم أن ذلك من مسائل الإسلام يتناظر فيها، ويأخذ كل فريق بقول من تلك الأقوال ثم لايكونون على أحوالهم من الشفقة والرحمة والألفة والمودة والنصيحة، كما فعل الصحابة والتابعون رضوان الله عليهم»[3].

---

(١) الحكيم الترمذى «نوادر الأصول»، ص ٥٤.
(٢) الحكيم الترمذى «علم الأولياء»، ص ١٣٤.
(٣)الحكيم الترمذى «نوادر الأصول»، ص ٢١٠، ٢١١.

وهذا جانب يبين أن المسائل التى اختلفوا فيها أذن لهم الإسلام بالنظر فيها والقول بالاجتهاد بالرأى فاختلفت أراؤهم ولم يفترقوا لأنهم لم يفارقوا الدين.

ويمضى الحكيم فى بيان الجانب الثانى فيقول : «وكل مسألة حدثت فاختلفوا فيها فردهم اختلافهم فى ذلك إلى التولى والإعراض والرمى بالكفر على أن ذلك ليس من أمر الدين فى شئ، بل حدثت من الأهواء المردية الداعية صاحبها إلى النار، وتورث العداوة والتباين والفرقة لأنها التى ابتدعها الشيطان فألقاها على أفواه أوليائه ليختلفوا ويرمى بعضهم بعضا بالكفر لأنه لما خلت قلوبهم من خشية الله تعالى وخوف عقابه بما قدمت أيديهم من ذكر الموت والأهوال التى أمامهم، والاهتمام بصحة الأمور وطلب الخلاص فيما بينهم، والانتباه لحسن صنيعه بهم وطلب النجاة من رق النفوس إلى حرية العبودة لربهم عز وجل فلما خلت من هذه الأشياء قلوبهم وجد العدو فرصة فألقى إليهم مثل هذه الأشياء التى يعلم المستنيرة قلوبهم أن هذا تكلف وخوض فيما لايعنيه مثل قولهم فى الجبر والقدر والاستطاعة قبل الفعل ومعه، وطلب كيفية صفات الله تعالى»[1].

فالحكيم فى هذا الجانب يتكلم عن طائفة اهتمت بمسائل الفتنة حيث أن الكلام فى تلك المسائل مما لم يؤذن فيه[2].

ويرى الحكيم أن الذى دفع هؤلاء إلى المواقف المردية، أنهم نظروا إلى المسائل من أهوائهم وسموها عقولا. وزعموا أن عقولهم لاتقبل هذه الأشياء ولا يصح مثل هذا من طريق المعقول، فكل ما لا تقبل عقولهم فذلك باطل، فيا أخى كيف تدرك بآلة مخلوقة محدثة مركبة ربوبية خالق قدير رب عالم يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد؟.. ومتى يدرك شئ يزيد وينقص ويتقارب ويتفاضل ربوبية رب لايزيد ولاينقص ولايتغير حاله؟ بل العقل حجة من الله تعالى على العبد، وهو آلة مركبة لإقامة

---

(١) الحكيم الترمذى «نوادر الأصول» ص ٢١١.

(٢) الحكيم الترمذى المرجع السابق ص ٢١١.

العبودية لا لإدراك الربوبية، ومن عجز عن إدراك أشياء فى نفسه مخلوقة فيه ولم يدرك حقيقتها علما إلا بالظن والخيال مثل النوم وأحوال القلب وطبائع النفس والروح ولا يعرف حقيقة النفس أى شئ هى، ولايعرف حقيقة العقل الذى يدعى أنه يعرف به كل شئ، فكيف يكون له سبيل الإدراك إلى ماهو أعلى منه؟ بل الصواب التسليم للحكم والاستسلام للرب. والرجوع إلى الحق[1].

وبعد، فهذه بعض الأمور التى استطعنا أن نلمح إليها من جهود الحكيم الترمذى فى علم الكلام وموقفه من المتكلمين، وحسبنا أن لفتنا النظر إلى شئ منها، وذلك يغنى عن التفصيل، وما يحتويه التفصيل من تعريفات قد تبعد بنا عن الهدف الأصلى.

وقد بان لنا أن الحكيم قام نظره فى الأصول على التأمل والنقل والأثر والاستدلال بالآيات على مايريد، واتسمت معالجته لمسائل التوحيد بجانب النقل والأثر بصبغة ذوقية.

---

(١) الحكيم الترمذى «بيان الفرق بين الصدر والقلب والفؤاد واللب» ص ٩٢.



المبحث الرابع

أثر الحكيم وآثاره

إن من يبحث عن تراثنا الإسلامى الخالد، وأثار سلفنا الصالح ليقف مبهورا أمام ماقدموه لدينهم، ومابذلوا فى سبيله من جهد وطاقة، وماتركوا لنا من كنوز رائعة، والحكيم الترمذى متعه الله بتبحر ورسوخ فى مختلف العلوم، وقدم ثابت فى العقيدة، فكان له من الدروس والتأليف مابرز به سعة وشمولا، وعمقا وتحقيقا، وتتبعا واستقصاء، وتنوعا وكثرة.

وإن الدارس لحياة الترمذى وأفكاره، يرى أنه صاحب فكرة واضحة، ومنهج محدد، فى رسم الصورة المثلى للرقى الإنسانى الذى يستطيع المؤمن الحق أن يصله، حتى يصير مثلاً حيا للخير يمشى بين الناس، ويتحقق ذلك عنده فى درجة الولاية التى خصص لها جانبا كبيرا من كتبه ورسائله يبين خصائصها ودرجاتها ومنابعها، ومايفاض على صاحبها من النور والحكمة اللذين يهبهما الله اياه، وكذلك يتحقق ببلوغ درجة المعرفة التى تصور قمة الكمال الإنسانى بين عباد الله الذين منحهم معرفته والعلم به كذلك فى تصويره للصراع بين العقل والهوى وكيفية التغلب على ذلك حتى ينجو المرء من شرور النفس ومكرها، ثم تصويره للسلوك الإنسانى المستقيم الذى حشد له مثُلا رائعة من مكارم الأخلاق، ونبل الصفات[١].

ويضاف إلى ذلك قدرته على التعمق فى المعانى، والخوض فى الدقائق والأسرار، واستنباطاته العميقة، وإشاراته البديعة، ونفحاته الطيبة وأفكاره اللطيفة.

وهذه المثل واللطائف التى تناولها الحكيم بالشرح والتحليل والذكر وبحثها فى كتبه ورسائله «جعلت الأبصار تتجه إليه، وتعكف على أرائه تناقشها وتقبلها أو تردها، وتعتنقها أو ترفضها. بدا ذلك فى حياته وبعد مماته»[٢].

---

(١) راجع الدكتور الجيوشى «الحكيم الترمذى دراسة لآثاره وأفكاره» ص ٣٢٧.

(٢) راجع المصدر السابق ص ٣٢٨.

أما فى حياة الحكيم فإننا نرى أن الدراسة تعطينا أنه كان للحاقدين والحاسدين عليه منهج يقوم على إثارة العامة، وحكام البلاد ليحققوا من وراء ذلك مآرب لهم، ويصلوا إلى أغراض لهم. ونتيجة لهذا المنهج الخطير تعرض الحكيم الترمذى إلى ألوان من المضايقات الاتهامات والنفى والحيلولة بينه وبين الناس. وكان ذلك حينما بدأ الحكيم الترمذى يروض النفس، ويتخذ مجلسا، يلتقى فيه الإخوان السالكون لمدارسة العلم ومذاكرته والدعاء والتضرع «ويبدو - كما يقول الدكتور الجيوشى - أن هذه المجالس كانت تحفل بكثير من إشارات الصوفية ولمحات العارفين فى أمور لهم يألف الناس الخوض فيها أو تناولها على هذا النحو الذى يطلق فيه العنان لإشراق النفس، ونور القلب، فيلهم أهله فهما فى آية من كتاب الله، أو حديثا من أحاديث رسوله الكريم أو تعليلا لأمر من الأمور التى كانت مجالا يخوض به الناس فى ذلك الوقت وكانت مثار أخذ ورد بين العلماء والباحثين، وتختلف نظرتهم إليها وحكمهم عليها تبعا لاختلاف المنزع والمنهج والقدرة على الاستنتاج والحرية فيه أو تبعا لارتباط الباحث بمنهج معين والسير على منوال خاص لايحاد عنه فى تفسير الأمور وتعليلها وقد أدى هذا الاختلاف فى المنهج والقدرة على الاستنتاج إلى أن يتناول بعضهم الحكيم بالنقد والتجريح، وأحيانا بالإيذاء والاتهام بالهوى والبدعة، مما سبب كثيرا من الحزن والألم للشيخ الحكيم»[1].

ويقول فى ذلك الحكيم: «وطلبت من يعيننى فكان يكون لنا اجتماع بالليالى، نتناظر ونتذاكر وندعو ونتضرع بالأسحار. فأصابتنى غموم من طريق البهتان، وحمل ذلك على غير محمله، وكثرت القالة، وسلط على أشباه ممن ينتحلون العلم يؤذوننى ويرموننى بالهوى والبدعة ويبهتون»[2].

ووصل الأمر بهؤلاء الحاقدين والحاسدين أنهم لم يتورعوا عن الوشاية به،

---

(١) راجع الدكتور الجيوشى «المسائل المكنونة» ص ١٤.

(٢) الحكيم الترمذى «بدو شأن أبى عبدالله» ص ١٧.

والافتراء عليه. ويصور الحكيم ذلك فى قوله : «واشتد البلاء وصار الأمر إلى أن سعى بى إلى والى «بلخ» وورد البلاد من عنده من يبحث عن هذا الأمر، ورفع إليه أن هاهنا من يتكلم فى الحب ويفسد الناس، ويبتدع ويدعى النبوة، وتقولوا على مالم يخطر ببالى قط حتى صرت إلى «بلخ» وكتب على قباله ألا أتكلم فى الحب»[1].. وقد بلغ الأمر أن أصبح الحكيم «لايجترىء أن يطلع رأسه»[2] ـ على حد تعبيره ـ خوفا من تشنيع هؤلاء العامة الذين لايعرفون إلا ظاهرا من العلم.وزاد من الخطورة أن حددت إقامته فلا يتصل بالناس ولا الناس يتصلون به.وكانت هذه الفترة رغم شدة وقعها، كانت بعيدة الأثر فى آثاره وأفكاره وسلوكه، والحكيم الترمذى اعتبر هذه الفترة بمثابة تمحيص وامتحان ومحاولة للتغلب على نوازع النفس، وامتلاك زمامها، وإخضاع رغباتها، حتى لاتجمع به أو تستهويها مظاهر العبادة والنسك فتفسد عليه طريقه، وتصرفه عن غايته التى كرس جهوده كلها للوصول إليها. وقد نلمس صدى هذه المجاهدات الدائبة، والمحاولات الشاقة لإخضاع أهواء النفس وامتلاك قيادها فيما كتبه الحكيم شارحا ومفصلا طريق رياضة النفس فى كتابيه المسميان «الرياضة» و«أدب النفس» وفى معالجاته المتكررة فى رسائله الأخرى لألوان الصراع الذى لايهدأ بين القلب وجنوده من ناحية، وبين النفس وأعوانها من ناحية أخرى، وتجده منبثا فى العديد من كتبه ورسائله حينما يحلل مكر النفس ويصورها بصورة الوحش المتربص لفرصة يغتنمها ليفتك بفريسته[3].

وقد نقل عن الحكيم أنه كان يقول:«ماوضعت حرفا على حرف لينقل عنى، ولا لينسب إلى شئ منه، ولكن كنت إذا اشتد على وقتى أتسلى بمصنفاتى»[4].

---

(١) الحكيم الترمذى «بدو شأن أبى عب دالله» ص ١٧ ـ ١٨.

(٢) المصدر السابق ص ٢١.

(٣) راجع الدكتور الجيوشى «مقدمة المسائل المكنونة» ص ١٦.

(٤) الحكيم الترمذى «م الأمثال من الكتاب والسنة» ص ٨، ط نهضة مصر.

ويبدو للباحث فى مؤلفات الحكيم، والمستنتج مما كتبه عنه رجال الطبقات والمعاجم أنه كانت فى حياة الحكيم فترات تهدأ العواصف فيها وتزول الشدة. فينجو منها الحكيم من مؤاخذة حاكم البلاد، ومتابعة المنافسين، ويرى الدكتور الجيوشى :« أنه قد تكون هذه الفترات هى التى كان يزول فيها سلطان بنى الصفار عن الأقليم، ومما يؤيد هذا الاستنتاج أن كتب التاريخ تذكر أن كثيرا من الثورات قد قامت فى هذه البلاد خلال حكم بنى الصفار لها، وأنها كانت تخرج من أيدى ولاتهم إلى حين تعود »[1].

والحكيم يشير إلى جانب من هذه الفترات فى رسالته الخاصة «بدو شأن أبى عبدالله» حيث يقول : «وهاجت بالبلاد فتنة وانتقاض أمر، حتى هرب جميع من كان يؤذينى ويشنع على فى البلاد وابتلوا بالفتنة ووقعوا فى الغربة، وخلت البلاد منهم»[2].

وقد يفهم الباحثون أن رحلات الحكيم الترمذى إلى «بلخ» كانت أكثر من مرة، وقد تعددت حسب الاتهامات التى وجهت إليه وكان نفيه إلى «بلخ» قد بدأ باتهامه بالحديث عن الحب وإفساد الناس وهناك موجة من موجات الاضطهاد العنيف أدت إلى نفى الحكيم إلى «بلخ» وكانت شديدة وقد نقل عن أبى عبدالرحمن السلمى أنه قال :«نفوه ـ أى الحكيم ـ من ترمذ، وأخرجوه منها، وشهدوا عليه بالكفر، وذلك بسبب تصنيفه كتاب «ختم الولاية» وكتاب «علل الشريعة» وقالوا أن يقول : أن للأولياء خاتماً، كما أن للأنبياء خاتما، وأنه يفضل الولاية على النبوة، واحتج بقوله عليه السلام:«يغبطهم النبيون والشهداء» وقال : لو لم يكونوا أفضل منهم لم يغبطوهم، فجاء إلى بلخ فقبلوه بسبب موافقته اياهم على المذهب»[3].

والسلمى يدافع عن الحكيم ويعتذر عنه : «ببعد فهم الفاهمين»[4] والسبكى فى

---

(١) راجع الدكتور الجيوشى «مقدمة المسائل المكنونة» ص ٢٠.
(٢) الحكيم الترمذى «بدو شأن أبى عبدالله» ص ١٩ ،٢٠.
(٣) انظر : السبكى «طبقات الشافعية الكبرى» جـ ٢، ص ٢٤٥، ط الحلبى .
(٤) المصدر السابق جـ ٢، ص ٢٤٥.

طبقاته يقول :«ولعل الأمر كما زعم السلمى وإلا فما نظن بمسلم أنه يفضل بشرا غير الأنبياء عليهم السلام على الأنبياء[1] .. وذكر قضية النفى إلى بلخ والأسباب التى أدت إليها الذهبى فى تذكرة الحفاظ، وابن حجر فى لسان الميزان، وشارح الرسالة القشيرية»[2].

ويعلق الدكتور الجيوشى على هذه الفترة الحرجة فى حياة الحكيم فيقول :«إنها كانت بمثابة موجات تهيج ثم تهدأ تباعا لارتفاع حرارة الخلاف بينه وبين المدعين للعلم فى ترمذ، ورفعهم أمر الخلاف بينهم وبينه إلى الوالى من وقت لآخر، ولاشك أن اضطراب الحياة السياسية كان ينعكس على موقف الحكام منه، ويبدو أن فترة الاضطراب السياسى التى كانت تؤدى إلى استبدال الحكام من وقت لآخر أعطته فرصة للتنفس من حين لآخر حتى كانت آخر هذه الموجات حين انحسر حكم بنى الصفار عن المنطقة، واضطر مؤازروهم إلى التوارى أو الفرار، حينئذ توقفت عوامل السعى ضد الحكيم وانتهت هذه الظروف التى امتدت أكثر من عشر سنوات».

لقد وضحت الأمور، وانكشف التآمر، وعرف الزيف الذى لفقه الحاقدون، وتبينت الوشايات التى لاحقت الحكيم، ووقف القوم يحسون بحلاوة الحديث، وطعم الكلمات فأقبلوا على الحكيم يطلبون الحكمة لتستنير القلوب وتزاحموا على موارد المعرفة، يقول الحكيم الترمذى:«حتى اجتمع الناس ببابى من مشايخ البلد من غير أن أشعر بهم، وقرعوا الباب، فخرجت إليهم فكلمونى فى القعود لهم، وقد كان هؤلاء الأشكال قد قبحوا أمرى عند العامة قبحا كنت أتوهم أنهم السقم أكثرهم، لما كانوا

---

(١) السبكى المصدر السابق جـ ٢، ص ٢٤٦.

(٢) الذهبى فى تذكرة الحفاظ جـ ٢، ص ٦٤٥،ط الهند وابن حجر فى لسان الميزان جـ ٥، ص ٣٠٨، ط الهند، والانصارى فى شرح الرسالة القشيرية ،جـ ١، ص ١٦٤، ط القاهرة، ومن الملاحظ أن هؤلاء جميعا نقلوا ما جاء عن نفى الحكيم من كتب السلمى، وطبقات الصوفية للسلمى لا يوجد فيها ذلك، ويبدو أن نقل هؤلاء عن كتاب للسلمى لايزال مفقودا.

يذيعون هؤلاء على من الكلام القبيح ويشنعون أمرى، ويرمونني بالبدعة، من غير أن يكون ذلك من شأني أو توهمته قط فمازالوا يكلمونني فى ذلك حتى أجبتهم إلى القعود، فذكرت لهم من الكلام شيئا كأنه يغترف من البحر فأخذت منى القلوب مأخذا .. واجتمع الناس فلم تحتمل دارى ذلك وامتلأت السكة والمسجد فلم يزالوا بى حتى مدونى «جرونى» إلى مسجد. وذهبت تلك الأكاذيب والأقاويل الباطلة، ووقع الناس فى التوبة، وظهرت التلامذة وأقبلت الرياسة، والفتن بلوى من الله لعبده، ورجع أولئك الأشكال إلى البلاد بعد ماقويت وكثرت التلامذة وأخذت القلوب مواعظى، وتبين لهم أن هذا كان منهم بغيا وحسدا فلم ينفذ لهم بعد ذلك قول وأيسوا»[1].

ولاشك أن مانقلناه عن الحكيم محمل بالمعانى الكثيرة والكبيرة، وفيه إشارات لطيفة. والذى يهمنا منه بالدرجة الأولى أثره فى هؤلاء المتعطشين إلى مواعظ الحكيم، المريدين له، الراغبين فى الاستزادة ، وبدا ذلك واضحا عندما ذكر لهم الحكيم شيئا من كلامه كأنه يغترف من بحر. فأخذت منه القلوب المواعظ والحكمة والمعرفة. وبدا الحكيميون يسلكون طريق الحكيم فكانت الطريقة الحكيمية التى أشار إليها الهجويرى فى كتابه كشف المحجوب حيث قال : «أما الحكيميون فينتمون إلى أبى عبدالله محمد بن على الحكيم الترمذى رضى الله عنه، وبداية كشف مذهبه هى أن تعرف أن لله تعالى أولياء أصطفاهم من الخلق، وقطع هممهم عن المتعلقات، واشتراهم من دعاوى نفوسهم وأهوائهم»[2].

وما ذكرناه كان بعضا من آثار الحكيم الترمذى التى ظهرت فى «حياته وقد أدى بعضها إلى أن يواجه الحكيم فترة امتحان عسيرة شديدة القسوة على نفسه، حتى أنه

(١) الحكيم الترمذى «بدو شأن أبى عبدالله» ص ٢٠ ـ ٢١.

(٢) الهجويرى «كشف المحجوب» الجزء الثانى ص ٤٤٢، ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ترجمة الدكتورة إسعاد عبدالهادى قنديل.

كان يخشى أن يخرج لئلا تعتدى عليه العامة بما سول لهم خصومه، من منتحلة العلم الذين أحالوا البلاد بالنسبة له جحيما لايطاق، وعكف الرجل على نفسه يتعهدها بالرياضة والمجاهدة وكان لا يجد وسيلة يمضى بها الوقت إلا اللجوء إلى أوراقه وأقلامه يسجل خواطره ويكتب ما يجول بذهنه من المعانى والأفكار. ولئن كانت هذه الفترة قاسية حقا على نفس الحكيم إلا أنها أثمرت لنا أغلب ماتركه من رسائل ومسائل وكتب، ناقش فيها كثيرا من الأراء والموضوعات»[1].

على أن ما حدث للحكيم نتيجة لأثاره العلمية كان من علماء الرسوم، الذين اهتموا بالقشور من العلم دون اللباب، فأثاروا العامة والحكام، وكان ما كان . «أما الباحثون وأصحاب الدعوات والمناهج السلوكية، فقد كان لهم مع الترمذى منهج آخر هدفه عرض الفكرة فى هدوء وحكمة، لايعنيه إلا البحث عن الحقيقة وكيفية الوصول إليها، وقد بدا فى أصحاب هذا الاتجاه الأدب الجم، والخلق الرفيع، فى حديثهم إلى الترمذى. ولئن كان الزمن قد عدا على رسائلهم إلى الترمذى، فلم نقف على دقائقها وتفصيلاتها. فإن ردود الترمذى قد تلقى ضوء على محتويات هذه الرسائل وأفكار أصحابها »[2].

والرسائل التى جرت بين الحكيم وبين مريديه والسالكين وشيوخ عصره والأولياء «تبدو لأول قراءتها إجابة لكتب وصلت إليه من أصحابها يرد عليهم فيها، إما بالإرشاد والتوجيه، وإما بتبادل النصيحة والتواصى بالحق،وإما بالتصحيح والتقويم لما ورد فى كتبهم إليه من أفكار»[3].

وكانت القضايا تدور حول أمور تشغل المهتمين بالمعرفة الصوفية والوسائل التى يرونها لتحقيق الصفاء النفسى، والسمو الروحى، واكتساب المعرفة، التى تقرب

---

(١) راجع الدكتور الجيوشى «الحكيم الترمذى وقضايا علم الكلام» منبر الإسلام ع٢، س ٣٨، ص ١٠٤ القاهرة.

(٢) انظر الدكتور الجيوشى «الحكيم الترمذى دراسة لأثاره» ص ٣٢٨.

(٣) انظر الدكتور بركة «خمس رسائل من الحكيم الترمذى» م أصول الدين ص ٢٧٧، القاهرة.

السالك من الله سبحانه، وتفتح الطريق أمامه للترقى فى منازل القرب التى لايدنو منها إلا من تسلح بصفاء النفس، ونقاء القلب، واستقامة السلوك، وشفافية الروح[١].

وفى رسائله كان الحكيم يناقش كثيرا من القضايا والمسائل التى كانت مثار جدل ونقاش فى عصره، بينه وبين من يكتبون إليه..

ومن هذه الرسائل رسائل خمس[٢] وحققها الدكتور عبدالفتاح بركة كذلك حققها فضيلة الدكتور الجيوشى[٣].

ـ رسالة عنوانها: **«جواب كتاب من الرى»** وفى هذه الرسالة يرد الحكيم على ما أبداه صاحب الكتاب من شوق إليه.

ـ ورسالة عنوانها : **«إلى أبى سعيد النيسابورى»**[٤]، وهو أحد ثلاثة من رجال الطبقة الأولى الملامتية أبو حفص النيسابورى وأبو صالح حمدون القصار النيسابورى، وأبو عثمان سعيد النيسابورى[٤] والملامتية فرقة صوفية ظهرت فى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى بمدينة نيسابور بخراسان، أطلق عليها اسم «الملامتية أو الملامية» أسسها رجال من أصدق رجال الطريق فى ذلك القرن الذى امتاز فى تاريخ التصوف الإسلامى بالورع والتقوى الحقيقيين كما امتاز بقوة العاطفة الدينية وجهاد النفس العنيف ومحاربتها ومحاسبتها على كل مافرط منها وما يحتمل أن يفرط منها ـ ومسلك الملامتية مسلك عملى من أوله إلى آخره،

---

(١) انظر الدكتور الجيوشى «رسائل الحكيم الترمذى » منبر الإسلام ع ٨، س ٤٠، ص ٤٦.

(٢) انظر الدكتور بركة «رسائل خمس للحكيم الترمذى» مجلة كلية أصول الدين، ع ١، ص ٢٧٧ ـ ٣٢٩، القاهرة.

(٣) راجع الدكتور الجيوشى «مجلة منبر الإسلام» العدد ٨ ، ٩ من السنة ٤٠.

(٤) أبو عثمان سعيد بن إسماعيل الحيرى الذى كتب إليه الحكيم هذه الرسالة فقد ولد بالرى ونشأ بها ثم رحل إلى نيسابور فاتخذها سكنا حتي توفى لثلاث عشرة ليلة بقين من ربيع الآخر سنة ثمان وتسعين ومائتين. انظر الدكتور الجيوشى منبر الإسلام ص ٤٠، ع٩، ص ٤٣.

ومجموعة من الآداب يقصد بها إلى مجاهدة النفس ورياضتها، مجاهدة ورياضة تؤديان بالسالك إلى إنكار الذات ومحو علائم الغرور الإنسانى[1].

ومثل هذا المنهج يقتضى منهم أن تكون معظم تعليماتهم متجهة إلى التضييق على النفس وذلك عن طريق النهى المستمر، والمنع المستمر، والاتهام المستمر، ولا شك ـ كما يقول الدكتور بركة ـ أن هذا إغراق قد يبدو فى نظر البعض مغالاة لامبرر لها، كما يبدو الاستغراق فيه صارفا عن الاستشراف إلى أفاق أعلى وأوسع. وهذا ما نلاحظه فى كتاب الحكيم الترمذى إلى أبى سعيد، فعلى الرغم من اتفاق الحكيم مع الملامتية فى نظرته المبدئية إلى النفس واتهامها ومن كونه ذا مذهب فى رياضتها وتأديبها، إلا أنه لايقبل نظرة الملامتية التى تحصر المريد فى هذا المنهج وحده، فتصرفه عن منهج أخر يتكامل معه»[2].

ـ ورسالتين تحمل كل منهما عنوان : **«إلى محمد بن الفضل»** وهو من كبار شيوخ الملامتية وقد كانت صلته بالحكيم الترمذى ـ على ما تدل عليه هذه الرسائل، ما ترشد إليه كتب الطبقات والتراجم ـ صلة وثيقة[3].

ـ ورسالة كانت إلى بعض أخوانه دون تعيين عنوانها :**«إلى بعض أخوانه»** وجاء فى مقدمتها :«وأجاب أبوعبدالله رحمة الله عليه بعض أخوانه عن كتاب كتب إليه»[4] وهناك رسائل أخرى كثيرة منها :

ـ رسالة عنوانها : **«المسائل التى سأل عنها أهل سرخس أو بيان أدب المريدين»**

---

(١) راجع الدكتور أبو العلا عفيفى «الملامتية والصوفية» ص ٣، ط الحلبى ١٣٦٤ هـ.

(٢) راجع الدكتور بركة «رسائل خمس للحكيم الترمذى» مجلة كلية أصول الدين ع ١ ،ص ٢٨٣ ، ٢٨٤.

(٣) المصدر السابق ص ٢٨٥.

(٤) المصدر السابق ص ٣٢٤.

وجاء فى مقدمتها : «أما بعد فقد فهمت مسائلك وما سألت من شأن المريد، وما الذى ينفعه ويضره فى سيره إلى الله تعالى، وكيف ينبغى أن يكون مبتدأ أمره»[١]

ـ ورسالة عنوانها : **«كيفية السلوك إلى رب العالمين»** وهذه الرسالة كانت ردا على سؤال وجهه إلى الحكيم الترمذى أحد الأولياء الكرام، الأصفياء للحكيم. يقول فيها الحكيم: «أجبت سؤالك أيها الولى الكريم، والصفى الحميم، فى كيفية السلوك إلى رب العالمين، والوصول إلى حضرته، والرجوع من عنده إلى خلقه»[٢].

فرأى الحكيم فى الولاية والأولياء ـ مما سنعرض له بالتفصيل فيما بعد ـ ومايلحق بذلك، كان رأى أتباعه، ومنهجا لهم، أما تأثير الحكيم فيمن أتى بعده، من رجال التصوف والعلماء فقد كان ـ كما يذكر الدكتور الجيوشى ـ «أوسع مدى ووضوحا وإن لم تتناوله كتب التراجم تناولا كافيا، ولكن هذا الأثر يدركه الدارس بوضوح فى أفكار الصوفية والمفكرين عامة على مر العصور بعده، وذلك عن طريق كتبه ورسائله التى كانت متداولة بتتابع الناس على نسخها حتى القرن الماضى[٣] ولكن ليس من السهل على الباحث أن يتتبع أفكار المتصوفة، ويكشف بالقراءة ماكتبوه جميعا ليتبين أثر الحكيم فى أفكار الصوفية، ومع كل هذا فإن المتتبع لبعض الموضوعات التى أصل أصولها الحكيم، يدرك بوضوح تأثيرها فيمن تناول هذه الأمور.

ومن هؤلاء العلماء الذين أخذوا من الحكيم وتأثروا به حجة الإسلام الغزالى فإن الباحث فى كتابه «الحكيم الترمذى» «الأكياس والمغترين» يدرك أن الغزالى انتفع بهذا الكتاب فى كتابه: «احياء علوم الدين» وبخاصة فى ربع المهلكات، وماكتبه الغزالى عن العلم والعقل والنفس والروح والقلب وجنوده استمده من مؤلفات الحكيم الترمذى «بيان العلم» و«أنواع العلوم» و«الاعضاء والنفس»[٤] وكتاب «الفروق

---

(١) الحكيم الترمذى «أدب المريدى» ص ٣٣ ، ط مطبعة السعادة تحقيق الدكتور بركة.

(٢) الحكيم الترمذى «كيفية السلوك إلى رب العالمين» ورقة ١٤٦، مخطوط بشمال المغرب.

(٣) الدكتور الجيوشى «الحكيم الترمذى دراسة لأثاره» ص ٣٣٠.

(٤) راجع الدكتور الجيوشى مقدمة «المسائل المكنونة» ص ٣٠.

ومنع الترادف» للحكيم، يتأثر به ابن القيم فى كتابه «الروح» فقد انتفع بما كتبه الحكيم فى كتاب «الفروق»واقرأ فى كتابه «الروح» لابن القيم فصل فى الفرق بين المهابة والكبر[١] ،وقارن بينه وبين ماكتبه الحكيم فى كتاب «الفروق ومنع الترادف» فصل بين المهابة والكبر[٢]، نجد أن الصلة واضحة والتأثير عميق.

- ورسالة عنوانها:«رسالة إلى بعض أخوانه » فيها : «وأجاب أبو عبدالله رحمة الله عليه بعض أخوانه عن كتاب كتبه إليه»[٣].

- ورسالة عنوانها :«مكر النفس»[٤] إلى غير ذلك من رسائل جاءت ردا عن استفسار، أو جوابا عن مسألة من مسائل السلوك والمعرفة كان أثارها السائلون من أهل العلم والطريق، وبعثوا بها من الأقاليم المجاورة إلى الحكيم الترمذى.

وإذا كان لبعض الأئمة أن يعلو شأنهم، ويتألق سناهم، وتبقى على الأيام ذكراهم بما صنفوا من الكتب أو خلفوا من الأثار، فإن الحكيم الترمذى علم من الأعلام، تشبع من الثقافة الإسلامية وكتاب الله وسنة الرسول عملا وسلوكا، وتجربة وطريقا. فأهله ذلك للتصنيف، واجتمع له من المؤلفات مالم يجتمع لغيره من الأفذاذ، وترك للتراث الإسلامى مايزيد على ستين كتابا وأكثر من مائتى رسالة..

ولا شك أن مؤلفات الحكيم كانت ذات تأثير فيمن كانوا حوله من شيوخ أو مريدين يحملون ذكره وتوجيهاته. وقد وجدت جماعة من المشتغلين بالتصوف عالجت قضية الولاية والأولياء على ضوء ما شرحه وأصله الحكيم فى كتاب «ختم الأولياء» وكتاب «علم الأولياء» وما اتصل بهذا الموضوع فى سائر كتبه ورسائله حتى أن هذه

---

(١) راجع ابن القيم «الروح» ص ٣٧٦ ، ط مكتبة نصير.

(٢) الحكيم الترمذى «الفروق ومنع الترادف» مخطوط ورقة رقم ٢٠ مكتبة الاسكندرية.

(٣) الحكيم الترمذى «المسائل المكنونة» ص ٨٣.

(٤) حقق هذه الرسالة الدكتور بركة ونشرها فى المجلد العشرين من مجلة معهد المخطوطات العربية، كما وضعها ضمن كتابه «فى التصوف والأخلاق» ،ط دار الطباعة المحمدية وكذلك حققها الدكتور الجيوشى ونشرها فى كتاب «المسائل المكنونة» ص ١٢٧.

الجماعة السالكة فى الطريق كونت تيارا معينا دعا رجلا مثل الهجويرى أن يعتبر «الحكيميون» أحدى فرق عشرة ارتضاها وشرح مبادئها بجانب الجماعات الأخرى التى اعتنق كل منها فكر شيخ من شيوخ الصوفية الكبار وسار على مبادئها [١]

ومن الذين أخذوا عن الحكيم الشيخ ضياء الدين عمار بن محمد بن عمار البدليسى المتوفى سنة ٥٩٠ للهجرة حيث أن كتابه «بهجة الطائفة بالله العارفة» فيه الكثير من كتاب «ختم الأولياء» للحكيم الترمذى، لاسيما فى الفصول الأخيرة من تأليفه[٢].

وعبدالرحمن الجامى يذكر فى «نفحات الإنسان» أن بهاء الدين نقشبندى مؤسس طريقة النقشبندية قد استفاد من الحكيم الترمذى وكتبه[٣].

وقد تأثر ابن عربى بالحكيم الترمذى فى حديثه عن الولاية والأولياء، ونجد ذلك واضحا فيما جاء فى «الفتوحات المكية» وقد أجاب ابن عربى عن مائة وخمس وخمسين سؤالا كان الترمذى قد طرحها فى كتابه «ختم الأولياء»[٤] وأجاب عنها ابن عربى فى فتوحاته[٥]، وأفرد للإجابة عنها مؤلفًا خاصًا سماه «القسطاس المستقيم فيما سأل عنه الترمذى الحكيم»[٦].

وقد نستفيد من البحوث أن ابن عربى تأثر بالحكيم الترمذى فى مواضيع أخرى غير الولاية والأولياء، ويظهر ذلك الأثر فى كتاب «التدبيرات الإلهية فى إصلاح المملكة الإنسانية» حيث يرى ابن عربى :«أن القلب هو قاعدة المملكة الإنسانية وأن

---

(١) الدكتور الجيوشى مقدمة كتاب «معرفة الاسرار» للحكيم ص ٢٠.

(٢) راجع الدكتور عثمان يحيى «ختم الأولياء» ص ٣٨.

(٣) انظر نور الدين عبدالرحمن بن أحمد الجامى «نفحات الأنس من حضرات القدس» ص ١٣٢، ط كلكتة ١٨٥٨م.

(٤) الحكيم الترمذى «ختم الأولياء» الفصل الرابع المسائل الروحانية ص ١٤٢ ـ ٣٢٥.

(٥) وقد الحقه الدكتور عثمان يحيى بأسئلة الحكيم فى كتاب ختم الأولياء ص ١٤٢ ـ ٣٢٦» «بالهامش».

(٦) انظر المصدر السابق.

العقل هو وزيرها الذى لابد أن يتوفر له مجموعة من الأخلاق والصفات حتى يتسنى له القيام على تدبير شئون المملكة بكفاءة وحزم»[1]. وهذه الصفات والأخلاق هى التى دعاها الحكيم الترمذى أعوانا للعقل فى بسط سلطانه على نواحى المملكة[2].

والباحث فى كتاب «الإتقان فى علوم القرآن» للسيوطى يجد أن السيوطى تأثر بالحكيم الترمذى فى بعض ماعالجه وعرضه فى الإتقان ومن ذلك ما جاء تحت عنوان: «قاعدة فى الألفاظ يظن بها الترادف وليست منه»[3] فإن ماجاء تحت هذا العنوان يستمد جذوره من كتاب «الفروق ومنع الترادف» للحكيم الترمذى.

وفى موضع آخر من كتاب «الإتقان» تحت عنوان «معرفة الوجوه والنظائر»[4] نلاحظ أن السيوطى استقى ما أراد أن يضعه من كتاب «تحصيل نظائر القرآن»[5] للحكيم الترمذى.

وقد يصل الباحث إلى معرفة كثير من العلماء تأثروا بالحكيم الترمذى وأخذوا من كتبه ويذكر الدكتور نقولاهير : «أن تأثير الترمذى على الصوفية بعده عن طريق مؤلفاته أوضح من تأثيره عليها بوساطة مريديه وتلاميذه فإن كثرة استنساخ كتبه حتى إلى عهد قريب تقوم شاهدا على مالقيته عند الناس من استحسان ورواج»[6].

ويؤكد محقق كتاب ختم الأولياء الدكتور عثمان يحيى: «أن تأثير حكيم ترمذ فى البيئة العلمية الإسلامية كان بواسطة كتبه ورسائله العديدة التى حفظ الزمن القسم الأعظم منها لحسن الحظ، وإن بقاء أكثر مؤلفات الشيخ الترمذى فى دور

---

(١) نقلا عن الدكتور الجيوشى فى كتاب «الحكيم الترمذى» ص ٣٣٤.

(٢) المصدر السابق ص ٣٣٤.

(٣) جلال الدين السيوطى «الاتقان فى علوم القرآن» جـ٢ ،ص ٣٦٣ ـ ٣٦٩، ط الهيئة المصرية العامة ١٩٧٤م.

(٤) المصدر السابق، جـ ١، ص ١٤٤، ١٥٥.

(٥) الحكيم الترمذى «تحصيل نظائر القرآن» تحقيق الأستاذ حسنى نصر زيدان.

(٦) الدكتور نقولاهير مقدمة بيان «الفرق بين الصدر والقلب والفؤاد واللب» ص ١٢.

المكاتب ان فى الشرق أو فى الغرب لدليل بارز على عناية العلماء البالغة بها، وشيوعها فى الأوساط الإسلامية المختلفة»[1].

وأستاذنا الدكتور عبدالفتاح بركة يقول:«وإذا كنا لانعرف مراحل الرحلة الطويلة التى قطعتها كتبه حتى وصلت إلينا ومدى تغلغلها وتأثيرها فإنه قد أصبح من المؤكد أنها تعتبر من أمهات الكتب الصوفية التى يرجع إليها، ويعتمد عليها »[2].

ويصف أبو الفرح الجوزى أحدى كتب الحكيم فيقول:وقد صنف لهم ـ الصوفية ـ أبو عبدالله محمد بن على الترمذى كتابا سماه «رياضة النفوس» قال فيه..[3].

فالحكيم الترمذى علامة واسع الاطلاع، يكاد يكون صاحب مذهب وهو غزير الإنتاج، ومرجع نفيس، وكتبه كان لها دورها[4].

وقد أثرت كتبه فى ابن القيم، وابن عربى، والغزالى، والسيوطى، والبدليسى، وبهاء الدين النقشبندى ، وغيرهم من علماء التصوف ورجال الطريق.

وقد كانت كتب الحكيم الترمذى ـ كما يقول الدكتور بركة ـ : تحظى بتقدير عميق فى المدرسة الشاذلية التى أسسها أبو الحسن الشاذلى المتوفى سنة ٦٥٦هـ والتى لاتزال حية إلى الآن فقد كان الشاذلى يعقد ميعادا لدراسة كتابه «ختم الأولياء» وقد بلغ من اهتمام شيوخ هذه المدرسة بهذه الدروس أن كان أبو العباس المرسى يحرص كل الحرص على حضورها وحينما يكون على سفر فإنه يلتمس كل وسيلة تمكنه من حضورها فى ميعادها كما كان ابن عطاء الله السكندرى يروى عنه

---

(١) الدكتور عثمان يحيى مقدمة «ختم الأولياء» ص ٣٨.

(٢) الدكتور بركة «الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية» جـ ١، ص ١٩٩.

(٣) ابن الجوزى «تلبيس أبليس» ص ٢١٠، ط إدارة الطباعة المنيرية.

(٤) المستشرق ماسنيون «دراسات فى التصوف الإسلامى» ص ٢٨٧، ٢٩٤، ط باريس ١٩٥٤.

فى تأليفه التى تعتبر أساسا فى كتب المدرسة الشاذلية، وقد بلغ من تقديره فى هذه المدرسة أنهم كانوا يطلقون عليه لقب «الإمام الربانى»[١].

ولعل مما يذكر : أنه ليس من مهمتنا أن نسترسل فى ذكر الأمثلة والكتب والطرق الصوفية التى تأثرت بالحكيم الترمذى وأخذت من مؤلفاته لأن ذلك خارج عن حدود هذه الرسالة.

وقد رأينا أن علماء المعاجم والطبقات - الذين وضعوا الكلمات فى مواضعها وكانوا أدرى بسير العلماء، وأعرف بمكانتهم ومنزلتهم - ورد فى كتبهم ومؤلفاتهم ما يوحى بأن الحكيم الترمذى كان يتمتع بالتقدير والإجلال لما توفر له من علم ودين بين شيوخ التصوف والعلماء المعاصرين له والذين جاءوا بعده وهذا هو أبو بكر محمد الكلاباذى المتوفى سنة ٣٨٠ هـ يذكر الحكيم فى الباب الرابع من كتابه «التعرف لمذهب أهل التصوف» فيمن صنف فى المعاملات. ويعتبره أحد الأعلام المشهورين، المشهود لهم بالفضل، الذين جمعوا علوم المواريث والاكتساب، سمعوا الحديث وجمعوا الفقه، والكلام، واللغة، وعلم القرآن، تشهد بذلك كتبهم ومصنفاتهم»[٢].

ويذكره السلمى المتوفى سنة ١٤١٢هـ فى طبقات الصوفية فيقول : «هو من كبار مشايخ خراسان، وله التصانيف المشهورة»[٣].

وأبو نعيم الأصبانى المتوفى سنة ٤٣٠ هـ يذكره فى «حلية الأولياء» بقوله :«أنه مستقيم الطريقة يرد على المرجئة وغيرها من المخالفين، تابع للآثار، وله التصانيف المشهورة»[٤].

---

(١) الدكتور بركة «الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية» جـ ١، ص ١٩٩.

(٢) الكلاباذى «التعرف لمذهب أهل التصوف» ص ٤٧، تحقيق النواوى ط كليات الأزهر.

(٣) عبدالرحمن السلمى «طبقات الصوفية» ص ٥١، ط الشعب.

(٤) أبو نعيم الأصبهانى «حلية الأولياء» جـ ١، ص ٢٣٣.

وقال عنه القشيرى المتوفى سنة ٤٦٥ هـ فى «الرسالة القشيرية» بانه: من كبار الشيوخ وله تصانيف فى علوم القوم[١].

والهجويرى المتوفى سنة ٤٧٠ هـ تقريبا فى «كشف المحجوب» يقول عنه «ومنهم الشيخ ذو الخطر، والغانى عن أوصاف البشر أبو عبدالله محمد بن على الترمذى رضى الله عنه، كان كاملا وإماما فى فنون العلم ومن الشيوخ المحتشمين، وله تصانيف كثيرة طيبة، وكرامات مشهورة مثل كتاب «ختم الولاية» وكتاب، «النهج» وكتاب «نوادر الأصول» وقد عمل كتبا أخرى كثيرة غير هذه، وهو معظم لدى جدا لأن قلبى صيد له، وكان شيخى يقول : «محمد در يتيم إذا لا قرين له فى العالم كله وله كتب فى علوم الظاهر وإسناد عال فى الأحاديث، وكان قد بدأ تفسيرا فلم يف العمر بإتمامه، وهو منتشر بين أهل العلم بالقدر الذى عمله»[٢].

والإمام الشعرانى يذكره فى «الطبقات الكبرى» فيقول عنه : «له التصانيف المشهورة»[٣].

وقال عنه السبكى فى «طبقات الشافعية» : المحدث الزاهد أبو عبدالله الترمذى الصوفى صاحب التصانيف[٤].

وذكره ابن حجر فى لسان الميزان بقوله : إنه كان إماما من أئمة المسلمين له المصنفات الكبار فى أصول الدين ومعانى الحديث وقد لقى الأئمة الكبار. [٥]

والذهبى فى تذكره الحفاظ يقول عنه : الزاهد الحافظ المؤذن صاحب التصانيف[٦]

والشيخ زكريا الأنصارى يقول عن الحكيم فى «نتائج الأفكار القدسية شرح

---

(١) القشيرى الرسالة القشيرية ص ٢٢، ط دار الكتاب العربى.

(٢) الهجويرى جـ ١، ص ٣٥٣.

(٣) الشعرانى «الطبقات الكبرى» جـ ١، ص ٧٨، ط صبيح.

(٤) السبكى «طبقات الشافعية» جـ ٢، ص ٢٤٥.

(٥) ابن حجر «لسان الميزان» جـ ٢ ،ص ٣٧٨.

(٦) الذهبى «تذكرة الحفاظ » جـ ١ ، ص ٦٤٥.

الرسالة القشيرية» : أنه الصوفى صاحب التصانيف المشهورة اشتهر بملازمة العبادة بين العباد، وتفرد من بين الصوفية بكثرة الرواية وعلو الإسناد، ناسك سلك طريق القوم وصل التهجد وهجر النوم، رحل فى طلب الحدث والعلم، وتلفح بمروط التقوى والحلم، لقى الأكابر، وأخذ عن أرباب المحابر، ومع ذلك كان صدرا معظما، وصوفيا محدثا مفخما، كثير الكيس واللطافة، غريز المعارف التى تحف أخلاقه وأعطافه تحلى بعقوده جيد زمانه، واتأرجت الأرض بعرف عرفانه، سمع الكثير من الحديث بالعراق وغيره، وهو من أقران البخارى.. ثم ينقل عن ابن عطاء الله قوله، كان الشاذلى والمرسى يعظمانه جدا ولكلامه عندهما الحظوة التامة ويقولان هو أحد الأوتاد الأربعة فلا تلتفت لخرافات بعض المجازفين ممن طعن فيه[١].

وابن الجوزى فى «صفة الصفوة» يقول عنه : «أنه من كبار مشايخ خراسان له التصانيف المشهورة»[٢].

وذكره بكل تقدير وإجلال كثير من المؤرخين كالجامى المتوفى سنة ٨٩٨هـ[٣] والمناوى المتوفى سنة ١٠٣١هـ [٤] ودارشكوه المتوفى سنة ١٠٥٦ هـ [٥] وطاش كبرى زاده[٦]، وخير الدين الزركلى[٧].. وابن تيمية حينما يناقش فكرة ختم الأولياء يعرض للترمذى ولايرضى رأيه فى ختم الأولياء،إلا أنه يعرف للرجل حقه ومكانته، ويثنى على كثير مما كتبه[٨].

---

(١) الشيخ زكريا الأنصارى«نتائج الأفكار القدسية فى بيان معانى الرسالة القشيرية» جـ ١، ص ١٦٤، ط بولاق ١٢٩٠هـ

(٢) ابن الجوزى «صفة الصفوة» جـ ٤، ص ١٤١، ط حيدر راباد ١٣٥٥هـ.

(٣) نور الدين عبدالرحمن الجامى «نفحات الأنس من حضرات القدس» ص ١٣١، ط كلكتة ١٨٥٨.

(٤) عبدالرؤوف المناوى «الكواكب الدرية فى تراجم السادة الصوفية» ق ٢١٢و-١١٢ ومن المخطوط رقم ٢٤٩ من مجموعة يهودا بجامعة برنستو نقلا من كتاب (بيان الفرق ـ المقدمة ص ١٠).

(٥) دارشكوه «سفينة الأولياء» مخطوط ق ٨٥ ظ.

(٦) طاش كبرى زادة «مفتاح السعادة» جـ ٢، ص ١٧١، ط حيدر اباد الهند.

(٧) خير الدين الزركلى «الإعلام» جـ١، ٧، ص ١٥٦، الطبعة الثانية.

(٨) ابن تيمية «حقيقة مذهب الاتحاديين» ص ٥٩ ـ ٦٠ ط رشيد رضا ـ نقلا عن الدكتور الجيوشى «الحكيم الترمذى دراسة لآثاره» ص ٣٣٩.

ويذكره العطار فى «تذكرة الأولياء» بقوله :«السليم السنة، عظيم الملة، مجتهد الأولياء، منفرد الأصفياء، حرم القدس، شيخ الوقت محمد بن على الترمذى رحمة الله عليه، المحتشم بين الشيوخ، والمحترم بين أهل الولاية، الداعى بكل اللغات، الشارح لمعانى الأحاديث والآيات، كان آية من شرح المعانى والثقة فى الأحاديث ورواية الأخبار والأعجوبة فى بيان المعارف والحقائق الكاملة القبول، العظيم الشفقة العجيب الحلم، العالى الخلق، صاحب الرياضات والكرامات، الكامل فى فنون العلم، والمجتهد فى الشريعة والطريقة، اقتدى به جماعة من أهل ترمذ، ومذهبه فى العلم أنه عالم ربانى، وهو حكيم الأمة وليس بمقلد لأحد، لأنه صاحب الكشف والأسرار والغاية فى الحكمة، ولهذا سموه حكيم الأولياء[1].

وصاحب «كنوز الأولياء» يقول عنه : من كبار المشايخ، وهو مجتهد فى الشريعة والطريقة، وله مصنفات فيهما، ولم يقلد أحدا، كان أعجوبة الدهر فى الكمالات العلمية والعملية، وكان لايتكلم إلا بالحكمة ولذا يقال له حكيم الأولياء[2].

وابن حجر العسقلانى المتوفى سنة ٨٣٢ هـ يذكر أن ابن النجار المتوفى سنة ٦٩٣هـ محمد ترجم له فى تاريخه «بأنه كان إماما من أئمة المسلمين له المصنفات الكبار فى أصول الدين ومعانى الحديث وقد لقى الأئمة الكبار»[3].. ويذكر ابن حجر ماقاله القشيرى والسلمى ـ مما سبق أن ذكرناه ـ كما ذكر كلام القاضى ابن العديم ورد عليه بعد ايراده له فقال :«وذكره القاضى كمال الدين بن العديم صاحب تاريخ حلب فى جزء له سماه «الملحة فى الرد على أبى طلحة» قال فيه:«وهذا الحكيم الترمذى لم يكن من أهل الحديث، ولا رواية له، ولا أعلم له نظرا فيه، وصناعة، إنما كان فيه الكلام على إشارات الصوفية والطرائق ودعوى الكشف عن الأمور الغامضة والحقائق، حتى خرج فى ذلك عن قاعدة الفقهاء واستحق الطعن عليه بذلك

---

(١) فريد الدين العطار «تذكرة الأولياء» جـ١، ص٩١، نقلا عن الدكتور الجيوشى «الحكيم الترمذى» ص ٣٤١.

(٢) اليافعى «كنوز الأولياء ورموز الأصفياء» ورقة ٨٤، مخطوط الظاهرة.

(٣) ابن حجر «لسان الميزان» جـ ٥، ص ٣٠٨.

والإزراء، وطعن عليه أئمة الفقهاء والصوفية وأخرجوه بذلك عن السيرة المرضية، وقالوا : أنه أدخل فى علم الشريعة ما فارق به الجماعة، وملأ كتبه الفظيعة بالأحاديث الموضوعة، وحشاها بالأخبار التى ليست بمروية ولا مسموعة، وعلل فيها جميع الأمور الشرعية التى لايعقل معناها بعلل ما أضعفها وما أوهاها » .. وبعد أن أورد ابن حجر كلام ابن العديم فى ذلك، ولولا أن كلامه يتضمن النقل عن الأئمة أنهم طعنوا فيه لما ذكرته ولم أقف لهذا الرجل ملا جلالته على ترجمة شافية(١).

وجدير بالذكر مايروى ياقوت فى «معجم الأدباء» من أن عم كمال الدين بن العديم، وهو جمال الدين محمد بن هبة الله بن محمد بن هبة الله، كان أحد الأولياء العباد، وأرباب الرياضة والاجتهاد، وأنه شغف بتصانيف أبى عبدالله محمد بن على الحكيم الترمذى، فجمع معظم تصانيفه عنده، وكتب بعضها بخطه»(٢).

وإن الإنسان ليقف أمام ماقاله كمال الدين بن العديم فى الحكيم الترمذى طويلا، لأن ابن العديم مؤرخ، أرادْ أن يحاكى مؤرخ الشام ابن عساكر، فعكف على النقول دون تمحيص ، ويبدو أن ابن العديم لم يكن مقتنعا كل القناعة بما وضعه عن الحكيم الترمذى ولذلك قال :«وطعن عليه وقالوا » فلم يقل هو، ولم يطعن هو، وإنما الذى طعن هم الفقهاء الذين تسببوا فى نفى الحكيم إلى«بلخ» .. ولا مانع من أن يكون هذا الكلام مدسوس على ابن العديم وقد يؤيد هذا ما صرح به عدد من المؤرخين المتأخرين من أن ابن العديم لم ينه تأليف كتابه بغية الطلب فى تاريخ حلب وإنما كتب مسودته فقط(٣).

---

(١) ابن حجر «لسان الميزان» جـ ٥، ص ٣٠٩.

(٢) المستشرق نقولاهير «بيان الطرق» هامش ص ٩.

(٣) الدكتور سهيل زكار «ابن العديم مؤرخ حلب وبلاد الشام» نهج الإسلام س ٣، ع ٢ . ١ ص ٦٤، وزارة الأوقاف سوريا ، ١٤٠٣هـ.

فهرس الكتاب

رقم الإيداع
٨٣/١١٠/ ٩٩

I.S.B.N.
977 - 294 - 152 - X

مطابع آمون

٤ الفيروز من ش إسماعيل أباظة
لاظوغلى - القاهرة
تليفون : ٣٥٤٤٥١٧ - ٣٥٤٤٣٥٦